الدعوة السنوسية في برقة ١٨٣٧ـ١٨٥٩دراسة مقارنة تاريخية

الأستاذ المساعد الدكتور
جاسم محمد شطب العبيدي
جامعة كربلاء

ملخص البحث

يدور البحث حول الدعوة السنوسية وعوامل ظهورها بكونها دعوة إسلامية إصلاحية ، ارتبطت بشكل وثيق بحياة مؤسسها ونسبه وتحصيله العلمي وجهاده في سبيل تأسيس الدعوة ، وحياة من جاء من بعده في زعامتها ، وعوامل ارتباطها ببرقة دون غيرها من الأقاليم . كما تطرق الباحث في بحثه إلى أهم مبادئ هذه الدعوة وعلاقاتها بالمذاهب والحركات الإسلامية الأخرى ، لاسيما بالحركة الوهابية ، ونظام الزوايا السنوسية بكونها وحدة بناء المجتمع السنوسي من جميع النواحي ، الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية . وتطرق الباحث أيضاً إلى الإخوان السنوسيين ، وأصولهم ومراتبهم داخل الدعوة والدور الذي قاموا في تدعيم الدعوة السنوسية ونشر أفكارها والدفاع عن مبادئها ومسلماتها ..

المقدمـة

تعد الدعوة السنوسية واحدة من أهم الدعوات الإصلاحية الإسلامية التي ظهرت في القرن التاسع عشر على مساحة العالم الإسلامي ، إن لم تكن من أهمها على الإطلاق ، نتيجة لنبل أهدافها وسماحة مبادئها وبعدها عن التطرف والعنف الذي اتصفت به الحركات الأخرى ، وما بلغته هذه الدعوة من نتائج على المجتمع البدوي العربي ، لاسيما بدو برقة .ويعد عام ١٨٣٧ بداية لانطلاق الدعوة السنوسية ، ففي ذلك العام أسس السيد محمد بن علي السنوسي أول زواياه في أبي قبيس في مكة المكرمة ، بيد أنه تركها لجماعة من الإخوان لإدارتها وقصد إقليم برقة وأسس في الجبل الأخضر أولى زواياه فيه في عام ١٨٤٢ . أما تحديد عام ١٨٥٩ لنهاية البحث ، ففي ذلك العام جاز

السيد السنوسي إلى ربه ، فلماذا أختار إقليم برقة على غيره من الأقاليم وهو ابن الجزائر المجاورة ؟ ،ثم ما هي أواصر ارتباط هذه الدعوة بالحركة الوهابية ، وهل يوجد مثل هذا الارتباط ؟. مع معرفة الدور الذي اضطلع به الاخوان السنوسيون في إقامة أسس الإمارة السنوسية في الزوايا ، التي لم تكن معتكفات عبادية ، كما كان مألوفاً في الطرق الصوفية بقدر ما كانت وحدات انتاجية اقتصادية بالمعنى الحرفي للكلمة .

أن مكوثي في جامعة عمر المختار في الجبل الأخضر موئل الدعوة السنوسية طيلة اثني عشر عاماً متواصلة زرت خلالها الزاوية البيضاء والزاوية السنوسية والجامعة في الجغبوب وكانت كلها أثراً بعد عين، فليس هناك مكتبة أو مباني أو قبة سامقة على ضريح ، بيد أني رأيت رأي العين مدى الحنين الذي يحمله أهل برقة لهذه الدعوة ومؤسسها، وليس من النادر أن تجد عدداً من الرجال والصبيان من يحمل اسم السنوسي أو محمد المهدي . لذا جمعت معطياتي لاسيما ما يخص الدعوة من الوثائق والكتب المصدرية والمرجعية ، حتى وصلت إلى العراق وكنت أكثر قدرة على الكتابة ، وكنت أعتقد بأني أول من يتصدى لموضوع كهذا في العراق ولكني فوجئت بأن هناك دراسة بنفس المعنى وهي رسالة ماجستير في جامعة الموصل مقدمة من قبل محمد علي محمد عفين في عام ٢٠٠٦ ، بيد أن الكاتب نحى في رسالته منحى آخراً ، لاسيما فيما يخص علاقة الدعوة السنوسية بالحركة الوهابية لذا ارجو أن أوفق في إماطة الغموض وسوء الفهم عن هذه الدعوة

عوامل ظهور الحركة السنوسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر

عانى المسلمون في ظل الدولة العثمانية جموداً عقائدياً عميقاً وترديا فكرياً وأخلاقياً نتيجة لتراجع الأداء الوظيفي والعسكري للدولة العثمانية؛ راعية الإسلام الرسمي في كافة جوانب الحياة، فصارت تتعرض لمؤامرات وهزائممن قبل دول أمعنت في هزيمتها من قبل مثل روسيا القيصرية والنمسا وفرنسا . ولما كانت المعتقدات الدينية هي مظاهر ونتائج حضارية في نفس الوقت قبل أن تكون أي شيء آخر، لذا تراجعت هذه المعتقداتوالقيم الدينية بتراجع الاقتصاد والتعليم والأداء العسكري،لاسيما في المناطق النائية أو البدوية في الأقاليم العربية الأفريقية ، فظهرت الطرق الصوفية في مختلف جهات

العالم الإسلامي ،لاسيما المهدوية في السودان والسنوسية في برقة ، وتأصلتالدعوة إلى الإصلاح الديني في مساحة شاسعة من العالم الاسلامي من أفغانستان حتى مصر ، وأصبحت أمراً حتمياً على يد الداعية الاسلامي جمال الدين الأفغاني والشيخ الإمام محمد عبده في مصر،اللذين كانت دعوتهما في حقيقة الأمر دعوة ضد الجمود الفكري والعقائدي، والعودة بالإسلام إلى صفائه الأول ؛ ديناً ديناميكياً متطوراًمبسطاًيتزعمه المؤمنون المثقفون من أجل شحذ الهمم وايجاد موانع اسلامية لمواجهة تداعيات الاسلام السياسي مواجهة الاستعمار الغربي (١).

وكان التردي الديني والفكري في المجتمعات البدوية العربية يعود إلى انعزالية هذه المجتمعات وبعدها عن سلطان الدولة ومركزها ومؤثراتها الحضارية والفكرية الخاوية أصلاً ، وتأقلمها وتطبعها بطبائع البيئة الصحراوية القاسية التي تعيشها ، فتحكمت فيها الأعراف والعادات والتقاليد البدوية بعيداً عن الشريعة الإسلامية السمحاء . وكانت القوة التي تتحكم في المواقف المجتمعية لحل الخلافات بين الناس وعقد الاتفاقات بعيداً عن التشريعات القرآنية والسنة النبوية المحمدية الصافية، نتيجة حتمية لسيادة الأمية والجهل المتأصلين في المجتمعات العربية والإسلامية ، وحكومات مستغلة جشعة نهابة متردية منعزلة عن الأوساط الاجتماعية التي تتحكم فيها، ولا تربطها بتلك الأوساط شرعية من أي نوع ، ومحاولات إصلاحية فوقية بائسة موجهة نحو تحسين الإداء العسكري في المقام الأول في الدولة العثمانية، دون الالتفات إلى جوانب المجتمع الأخرى "فإذا صلح الإداء العسكري للدول تصلح المجتمعات" ، وهذا منطق معكوس تماماً، فإن الإداء العسكري لكل دولة هو نتيجة للسياسات الداخلية وليس سببا لهاً.

وفي مجتمع برقة البدوي موضوع البحث بوصفه انموذجاً عن أمة " اقرا باسم ربك الذي خلق " في القرن التاسع عشر ، نجد إذا ورد أحدهم كتاب لا يجد من يقرأه له في عموم البادية،فهو يذهب إلى احدى المدن لعله يجد بغيته . وترسخت قيم وأخلاقيات الجاهلية فيه ، واستشرت قيم السلب والنهب وقطع الطرق والقتال لأتفه الأسباب في تلك المجتمعات، وتراجعتقيم الإسلام أمام قانون الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح ، ولا مكان للضعفاء المجردين من القوة ، ولا احترام للقيم السامية مثل العدالة والمساواة وإكرام الضعيف وغير ذلك . ومع كل هذا كان البدوي المجبول بالخشونة والصلابة

والقسوة والمنغلق الرأس الصخاب غير الملوث بأمراض الحضارة البسيط الصافي النفس الذي يمتلك كثيراً من قيم النبالة العربية ، كان أرضية مناسبة لزرع بذور الخير والصلاح . مقارنة بالإسلام الحضري الصوفي القائم على طرق الدراويش المختلفة التي تدار من قبل رجال دين بيروقراطيين مرتبطين بالنظام الثيوقراطي ، وكانوا يستلمون رواتبهم من خزائن الدول في طرابلس أو القاهرة أو المدن العربية الأخرى ذات الطابع التجاري أو الزراعي و الفوائض الاقتصادية الأعلى، مقابل الدفاع عن شرعية حكم الحكام وحمايتهم للدين. . .!، وكانت جوامع القرويين والزيتونة أو الأزهر مراكز لتسويق شرعية هؤلاء الحكام وإسباغ كل الفضائل على حكمهم ، ولم يكن سلاطين آل عثمان بعيدين عن هذه الفضائل بل كانوا مصدر كل فضيلة . . . !! . وكان الجامع الأزهر يمثل طيفاً واسعاً من التأثير المذهبي بكونه مركز تدريس المذاهب الأربعة الممثلة للإسلام الرسمي(السني)، ومصدر لحشد هائل من الأفكار الدينية التي ربما تجاوزت في تأثيرها البلاد العربية في آسيا وأفريقيا، رغم الوهن الذي أصابه نتيجة لذلك الجمود الفكري الذي أصاب المسلمين ، الذين انقطعوا عن الاتصال الحضاري بالأمم الأخرى، مع استثناءات بسيطة من قبيل ما قام به محمد علي مصر، الذي نجح في إقامة دولة حديثة بكل المقاييس في مصر .

ونحن هنا لا نفترض وعياً دينياً فقهياً ديناميكياً تجديدياً على درجة عالية من الحداثة في المدينة العربية ، فأنها جزء من كل ، فكان رجال الدين أو العلماء منغلقين على ذواتهم يتملكهم الجهل لأنهم جزء من مؤسسة شائخة متخلفة غير مستقلة مرتبطة بمنظومة اقتصادية سياسية اجتماعية متردية لا تنتمي إلى عصرها. وليس لدى هذه الفئة إلا ترديد بعض الكتب الفقهية والنحوية وجل همهم التوسع في الشروح وشروح الشروح ، حتى تكدست أعداد كبيرة منها في كل قضية ،وأصبحت بحاجة إلى من يفهمها ، وكان الأجدر بهم فهم المتون واستنباط الأحكام . لذلك انتقد السيد السنوسي التقليد الأعمى المتزمت للمذاهب الأربعة ودعا إلى فتح باب الاجتهاد ، واعتماد القرآن والسنة بوصفهما مصدرين اساسيين من مصادر التشريع ومعيارين اساسيين لمعالجة الأحاديث غير الصحيحة أو التفسيرات القرآنية الناقصة أو غير القويمة ، فقد عدها الخطوة الأولى أو بداية للتطور العلمي ووسيلة من وسائل توحيد الأمة وخلق تمازج بين

المذاهب الإسلامية ، لاسيما بين المذهب المالكي والمؤسسات الصوفية ، والرد على دعوات التقليد السلفي المتزمت والتشرذم الطائفي في المؤسسات التشريعية والدينية ، فكل واحد يصلي خلف إمامه في المسجد الواحد ، وينطبق ذلك على الإفتاء أو الخوض في المسائل الشرعية من قبل رجال الدين في المذاهب .

وهم كما وصفهم المؤرخ الجبرتي "زالت هيبتهم من النفوس وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية، ومشاركة الجهال في المآتم، فتراهم في كل دعوة ذاهبين ، وعلى الخوانات﴿كذا﴾ راكعين، ولما وجب عليهم من النصح تاركين"(٢) . وهم على العموم أدعياء دجالون يدعون لأنفسهم من الصلاح والعلم والنسب الشريف أو المكتسب، ما ليس فيهم ، بيد أنهم في نظر الجهال " يتصرفون في ملكوت الله " وانهم في حالات الغضب يشقون، وفي حالات الرضا يسعدون، والويل كل الويل لمن اغضبهم . وكان حرياً بالجبرتي أن يصفهم بعدم الاستقلالية ، ذلك أن النفوس العظيمة كانت نفوساً مستقلةً مؤثرةً قادرةً على قيادة التغيير . فكان الشيخ أحمد بن ادريس المغربي والسيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده والسيد محمد علي السنوسي ومحمد المهدي السوداني وغيرهم،كانوا مستقلين عن الأنظمة السياسية ،عصيين على الشراء من قبل هذه الأنظمة ، لاسيما من قبل الدولة العثمانية، فعاشوا في ترحال دائم ، وليس لهم أوطان محددة فكل بلاد الله كانت لهم أوطاناً، وغالباً ما كانوا مطرودين أو مطاردين من قبل السلطات السياسية الدنيوية أو الدينية التقليدية .

بلغت الدولة العثمانية على أعتاب القرن التاسع عشر درجة من الضعف لا ينفع معها كل دعوات الإصلاح وأول هذه الدعوات ما قامت به الدولة العثمانية نفسها من حركة ضخمة جداً في عرف بالتاريخ العثماني" التنظيمات الخيرية Modernization Movement" أو التحديث ، التي استمرت من دون انقطاع منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر حتى تفكك هذه الدولة في نهاية الحرب العالمية الأولى ، دون نتائج توازي الجهد العظيم المبذول من قبل سلاطين آل عثمان والصدور العظام والموظفين الآخرين. وقد استشعر المصلحون والدعاة ومنهم السيد محمد بن علي السنوسي الخطر الداهم على أقاليم الدولة العثمانية من أوربا المجاورة ، لاسيما بعد أن قفزت فرنسا على الجزائر في عام ١٨٣٠ وقفزت مصر على عدن في عام ١٨٣٩ . لقد تنبأ السيد السنوسي في عام

١٨٥٤ من مدينة درنة، بأن بريطانيا ستغزو الاسكندرية (مصر) والنابلطان (مملكة نابولي) ستغزو طرابلس . وقد صرح قبل ذلك عندما كان ماراً بمدينة طرابلس في الوقت الذي يحاصرها أسطول مملكة نابولي أن أهل برقة سيجاهدون النابلطان تحت قيادة ولده المهدي . لذا اصبح لزاماً على سكان الجبل الأخضر أن يتهيؤوا اقتصادياً وعسكريا حتى يكونوا مستعدين لهذه المنازلة (٣) . لقد كان السيد السنوسي على وعي تام الأوربي الماثل على أقاليم الدولة العثمانية لاسيما طرابلس وبرقة ،وكان بعض اهل برقة يذكرون أنهم سمعوا منه أثناء بناء الزاوية الأم في البيضاء " أن الافرنج سيأتون يوماً إلى هنا ويهدمون قبة الصحابي سيدي رافع ، ويربطون خيولهم في مسجد الزاوية ، ويأخذون حجراً من بنيان البيضاء قديماً مكتوباً عليه عبارات لاتينية " (٤). إن صحت هذه الرواية فإن السيد السنوسي أدرك بثاقب بصيرته ما ينتظر المسلمين من أخطار.

وكان بدو برقة جزءاً من المجتمعات العربية الإسلامية المتسمة بالبساطة وصفاء النفوس ونبالة أخلاقية تستدعي الإعجاب ، وكانت حياتهم بسيطة عمادها السكن في خيام كانت نتاج مناسجهم ، وامتهان الرعي والزراعة والتنقل في مناطقهم بتتابع الفصول. وبسبب عزلتهم كانوا جاهلين بالعالم الخارجي المحيط بهم ، وقد وصفهم بعض الرحالة ومنهم احمد حسنين الذي ساح في برقة، أنهم كانوا قبيل ظهور الحركة السنوسية سادرين في غايات الضلال(٥)، في اشارة إلى بساطة التفكير والتدين المجزوء المقرون بهم ، فضلاً عن حالة من الصراع الداخلي المستحكم بين قبائلهم . وكان الاقتتال يندلع بين القبائل لأتفه الأسباب، إذ لم تكن هناك أسباب مهمة موجبة لذلك ،كتلك الصراعات والنزاعات حول الأراضي الزراعية الأكثر خصوبة أو مصادر المياه ، فمثلاً نسمع عن خصام تحول إلى عراك واسع بسبب قطعة من الخشب عثر عليها أحدهم ورغب بها الثاني، عصابة سرقت مجموعة من الخراف أو قيام شخص بحلب ناقة غيره بدون استئذان أو بهيمة أكلت من زرع أحدهم ، أو أن احد رجال القبائل نزى على فتاة من قبيلة اخرى فتزوجها بدون رضا ابن عمها ، الذي يريد الزواج منها هو الآخر ، فأشعل بذلك حريقاً شمل برقة مدة طويلة من الزمن نتيجة لتراكم الترات، مثل الصراع بين قبائل السعادي مع بعضها في مطلع القرن التاسع عشر والصراع بين قبيلة العبيدات والبراعصة الذي استمر بين القبيلتين ثلاثين عاما(٦). وفي كل التطاحن القبلي الذي وقع

في إقليم برقة كانتالحكومة القرمانلية أو العثمانية إلى جانب هذا الطرف أو ذاك، فكانت بسياستها أو بتدخلها المباشر تذكي الصراع بين الأطراف المتنازعة . وكانت ترمي بتلك السياسات أو التدخلات إلى الفرقة التي تسهل سيطرتها على الإقليم على قاعدة" فرق تسد". إن كلمة الوحدة أو الاتحاد أو التوافق القبلي كلمة مرعبة للإداريين العثمانيين، فلم يضمنوا معها استمرار هيمنتهم السياسية ، كونهم فئة حاكمة مرموقة بالمجتمع ، إلا في حالة استمرار الشقاق بين عناصر القاعدة الاجتماعية العريضة في الولاية أو الإقليم .أما أهل المدن في الإقليم لاسيما أهل بنغازي الذين لم يحظوا بوصف جميل من الرحالة التونسي محمد بن عثمان الحشائشي فهم متعجرفون، أصحاب شح وكسل، لايزالون مترددين في الجهل، بدون أي مظهر من مظاهر المدنية أو التربية الدينية ، "لولا أن ارسلت إليهم رحمة الله الأخوة السنوسية ، التي ساهمت كثيراً في إعادة خلقهم أدبياً " (٧) . وعلى أية حال فأن مدينة بنغازي لم تنشأ فيها زاوية سنوسية إلا في عام ١٨٧٠ أما درنة والمرج وطبرق فكانت قرى صغيرة بشكل ملحوظ في نهاية القرن التاسع عشر.

رافق هذا التشرذم القبلي والاقتتال العنيف المرافق له والزراية في مجتمع المدينة والقرية ، تسطيح وجهل تام بالجوانب العبادية من الدين الإسلامي، ولا يعرف القبلي البرقاوي من الدين الإسلامي سوى الاسم وهو يفخر بأنه مسلم، وقال بعضهم للتعبير عن اسلامه "نصوم ونحارب"(٨). اي أن العبادة في الإسلام هي الصوم الذي لا يؤدى بشكل دقيق ، والجهاد الذي هو إتمام لكل منقصة في عباداتهم ، وربما اعتقدبعضهم أن القتال ضد القبائل الأخرى كقتال العبيدات ضد البراعصة هو نمط من أنماط الجهاد وهم لا يعدمون من يسوغه لهم. أما الصلاة والزكاة والحج والممارسات الدينية الأخرى فكانت تتم بطريقة مثيرة للسخرية(٩). وربما لا يعرف البدوي أن الصلاة هي ركن الدين الأساسي في الاسلام . وإذا تعارضت الشريعة مع الأعراف فأن البدوي يتبع الأعراف(١٠) . وهي أمور لخصها السيد السنوسي عندما قدم لهم البدائل عن تلك الممارسات بالقول ، " ندعوكم إلى إطاعة ما أمر الله به ورسوله من إقامة الصلوات الخمس وصوم رمضان وإيتاء الزكاة والحج إلى بيت الله واجتناب ما نهى عنه الله كالإفك والغيبة وأكل أموال الناس بالباطل وشرب الخمر وقتل الأنفس دون وجه حق وشهادة الزور وغير ذلك مما حرم الله "(١١) . وأن الغرض من الدعوة السنوسية هو

جعل المسلم رجلاً صالحاً أكثر من جعله زاهداً جيداً ، فالزهد الذي أكد عليه الشيخ السيد السنوسي يجب أن يضاف إلى الايمان بالدين الحنيف والأخلاق الكريمة ، وليس بديلاً عنهما (١٢) .

السنوسي الكبير ، نسبه وسيرة حياته الأولى وبناؤه الفكري

ولد السيد محمد بن على بن السنوسي بن العربي الخطابي الادريسيالحسنيالفاطمي العلوي(١٣) في الواسطة التابعة لمدينة مستغانم(مستاغانيم) التابعة لمدينة وهران في غرب الجزائر في يوم الاثنين الموافق للثاني عشر من ربيع الأول في عام ١٢٠٢هجري(١٤)، الموافق للثاني والعشرين من كانون الأول(ديسمبر) ١٧٨٧. فكان حضرياً في مولده ، في بيت علم ، إذ كان ابوه وجده وأعمامه وجدته لأبيه السيدة الزهراء كلهم من العلماء ،أما عمته السيدة فاطمة العلوية التي كانت من فضليات عصرها زاهدة متبحرة في العلوم منقطعة إلى التدريس والوعظ ، لم يأنف العلماء من حضور مجلسها ، وهي التي تولت الحدب عليه وتربيته بعد وفاة أخيها السيد علي وهو في شرخ الشباب . ولما توفيت عمته في عام ١٧٩٨ كفله أحد أقاربه ويدعى الشارف ، وكان رجل علم ودين أيضاً (١٥) . أما تسميته بالسنوسي فترجع إلى جده الرابع المعروف بالسيد السنوسي المولود في مدينة سنوسة الجزائرية القريبة من مدينة تلمسان ويعتقد أن اسم هذه المدينة نسبة إلى قبيلة بني سنوس كانت تقطن هناك ، وقبر الجد موجود فيها، ويعتقد أن جده السيد محمد تسمى بنفس التسمية (١٦).

لقد كان للجو الفكري الذي عاش فيه اثر كبير في توعيته ، فقد قرأ القران الكريم وأجاد قراءاته وأتقن علمي التجويد والفقه ، ونبغ في النحو والصرف ودرس الحديث والتصوف ، وكان فصيح اللسان جذاب المظهر طويل القامة سريع الفهم ، فساعده هذا في ان يصنع ذلك الانجاز الكبير الذي حققه ، في الطريق الذي سلكه منذ صباه ، فكان فارساً ومعلماً ومجدداً ومعادياً لا يشق له غبار للاستعمار ، فقد قسم يومه إلى نصفين الأول لطلب العلم وتحصيله ، والثاني لتعلم الفروسية وركوب الخيل واستعمال أدوات القتال ، يدفعه إلى ذلك وعي عميق بتدهور حالة الإسلام في أفريقيا منذ صباه ، فقد يكون بحاجة في يوم من الأيام إلى استعمال السلاح رغم نزعته السلمية (١٧) .

كان السنوسي الكبير من كبار المفكرين وهو مؤسس دعوةدينية اجتماعية اقتصادية سياسية ناجحة ، فتميز بمقدرة فائقة على تبسيط أفكاره، وكان يكلم الناس على قدر عقولهم فكان يسأل" أ للطير عقل؟" فيجيب العامة "لا" ، فيرد عليهم " لكنه يضع بيضه في أعالي الجبال ، حتى لا تصله الثعالب ﴿أو﴾ الذئاب". ثم يسأل" هل للجربوع عقل؟"، فيجيب العامة " لا" فيرد عليهم " ولكنه يحفر في جحره منافذ عديدة للهرب من الحية، لهذا أحذركم من الحية السوداء التي تأتيكم من اتجاه الشرق والغرب"(١٨). فأراد السيد السنوسي بهذه الحوارية أن يشحذ أذهان أتباعه بجدلية يصل بهم فيها إلى الخطر الذي من الممكن أن تتعرض له بلادهم وهو خطر الغزو الخارجي ، فاثبت قدرته على تبسيط الأفكار مع خطورة ما يطرحه. فقد بدأ في وضع الأسس التعليمية والاقتصادية والسياسية لدعوته ، فقد اثبت أن هذه الرؤى تدل على عقل ناضج وقيادة واعية قادرة على بناء حركة اجتماعية .

كان السنوسي منذ حداثته يقدر نفسه حق قدرها ، وهو يعلم أنه ادُخر لمهمة شاقة ، فكان ميالاً إلى الانزواء والانفراد وصرف وقتة في التفكير فيما يرى حوله من أحوال الاسلام ، وهو في ذلك السن عميق الايمان في ضرورة العمل من اجل إحياء الأمة الاسلامية وتوحيد صفوفها ، والنهوض بالدين الحنيف نهضة صحيحة قوية ، وكان يعتقد أن العالم الإسلامي قطيع من الغنم لا راعي له ، على الرغم من وجود سلاطينه وأمرائه وشيوخ طرائقه وعلمائه، ومع وجود المرشدين وعلماء الدين في كل مكان إلا أنه مفتقرا اشد الافتقار إلى مرشد حقيقي ، يكون هدفه سوق العالم الإسلامي اجمع إلى غاية واحدة وغرض واحد ، والسبب في ذلك هو انعدام الغيرة الدينية لدى العلماء والشيوخ آنذاك ، وانشغالهم في الخلافات القائمة بينهم حول سفاسف الأمور، والتي مزقتهم شيعاً وجماعات ، فاصبحوا لا يعنون بنشر العلم والمعرفة ، ولا يعملون بأوامر الدين الحنيف . كما أن الشعوب المجاورة في السودان والصحراء من أفريقيا الغربية في تلك المرحلة لا تزال تعبد الأوثان . فبدلاً من وعظ هذه الشعوب الوثنية ودعوتها وارشادها إلى الدين القويم ، فانهم كانوا يفضلون المكوث في كل مسجد من مساجد المعمورة غير عاملين بعلمهم ، لا هم لهم سوى راحة أجسادهم ، وحريصين على لذاتهم ، فضلا عما كانت تصله من أخبار عن طريق القوافل التجارية الواصلة إلى

مستغانم، والتي تخبره بان الإسلام هناك مغلوباً على أمره في كل مكان، وانه في حالة تدهور مخيف . فكانت هذه الأمور مؤلمة للسيد محمد بن علي السنوسي الذي كان منذ صباه يعمل على تحسين أحوال العالم الإسلامي (١٩) .

بدأ السنوسي الكبير بدراسة القرآن والسنة النبوية ثم التصوف في الجزائر ، ثم رحل بعد ذلك إلى جامعة القرويين في فاس في المغرب الأقصى فمكث فيها حتى عام ١٨٢٥، فدرس الشريعة وتعمق في دراسة الطرق الصوفية ، والفرائض والحساب والأربعين ومضاعفاتها والأسطرلابيين وصناعتها والعلوم الأربعة ؛ الرياضة والهندسة والهيئة والطبيعة ، وعلم الأرثماطيقي والمساحة والتعديل والتقويم وعلم الحكام والنسب والوقف والتكسير والجبر والمقابلة . وحصل بعد ذلك على درجة الإيجاز كعالم دين معترف به ، وعمل مدرساً في الجامع الكبير بمدينة فاس لتدريس بعض هذه العلوم . وأقبل الناس عليه لصلاحه وتقواه وفكره الناضج وهو لايزال في ميعة الصبا ، فخشيت حكومة السلطان سليمان من اتساع صيته كرجل صوفي وعالم بالشريعة ، ولم تكن الصوفية(الإسلام الشعبي) التي تمثل السواد العظم من الناس مرحّباً بها في بلاطات الدول، في مقابل الإسلام الرسمي(السلفي). أو أن تتحول معرفته بالشريعة إلى طموح سياسي غير مرغوب فيه، لذا رأى أن لا فائدة من بقائه في مدينة فاس؛ مهد اسلافه ، فعزم على الرحيل إلى صقع هو بحاجة لعلمه (٢٠) .

بعد عودته إلى بلاده شعر السيد السنوسي بأنه بحاجة إلى معرفة المزيد عن الطرق الصوفية المنتشرة في الجزائر ، إذإنه درس في أثناء إقامته في فاس الطريقة القادرية والدرقاوية والناصرية والحبيبية والجزولية المغربية والعيساوية والمدنية وغيرها من الطرق الصوفية التي كانت منتشرة في المغرب الأقصى ، وعمد من خلال رحلته إلى زيارة هذه الزوايا والاجتماع بالإخوان ، ومعرفة مختلف الطرائق كالزيانية والمحمدية حتى بلغ عين مهدي ،إذ درس فيها الطريقة التيجانية ، ثم قصد الاغواط وفضل الإقامة بها لأهمية موقعها بجنوب الجزائر بجوار خطة توات بوصفها من مفاتيح الصحراء ، ومحط القوافل الاتية من السودان الغربي والذاهبة إليه ، حيث مكث فيها بعض الوقت يتلقى دروس الفقه والشريعة. وكان الدافع من وراء تركه لمدينة فاس رغبته في إصلاح العالم الإسلامي ، فضلاً عما كان يراه من فائدة التنقل من الاغواط إلى الأماكن التي يراها

صالحة لبث الدعوة ونشر الموعظة ، لذلك بنى أول زاوية له عند عرب النوايل في جنوب شرق قسنطينة (٢١).

من المرجح أن سفر السيد محمد بن علي السنوسي إلى مكة ومروره بالقاهرة كان بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر في عام ١٨٣٠، وهو غير سفره الأول الذي ذهب به لأغراض الحج الذي عاد منه في عام ١٨٢٩ (٢٢). فقد خرج من منطقة قسنطينة في شرق الجزائر ودخل تونس ودرس في جامع الزيتونة، ودخل طرابلس وألقى دروسه في جوامعها بالوعظ والإرشاد ، ثم غادرها إلى إجدابيا ، فمر ببعض نجوع برقة ، لاسيما بالشيخ على الإطيوش ومنها إلى أوجلة دون أن يعرج على بنغازي وواصل سفره حتى دخل القاهرة . وفي الطريق التقى ببعض مريديه مثل آل عمران بن بركة ، وعمر بوحوا الأوجلي وعبد الله التواتي(٢٣). ويبدو أن السيد السنوسي شخّص حاجة إقليم برقة إلى وعظه وارشاده في وقت مبكر ، بعد أن نفض يديه من أقاليم وسط وشرق وجنوب الجزائر بسبب الغزو الفرنسي(٢٤) .

ولما دخل القاهرة كانت حكومة محمد على باشا مسيطرة على الجامع الأزهر الذي كان اعظم مؤسسة دينية للإسلام الرسمي . وكان شيوخ الأزهر على اختلاف توجهاتهم وطبقاتهم ومذاهبهم وثيقي الصلة بالحكومة وهم يخشون بطشها ويأملون رفدها ونوالها ، وكان منبر المذهب المالكي مشغولاً من أحد كبار العلماء الوثيق الصلة بالسلطة الزمنية . ولم يكتف السيد السنوسي بتلقي العلم من رجال يراهم دون شأوه ، وهو العالم النحرير، بل رغب في إلقاء دروسه وإرشاده ،ولكنه منع من ذلك ، ولم تجد تعاليمه آذاناً مصغية في هذه البيئة الحضرية . وعدت دعوته إلى تحرير باب الاجتهاد من مغاليقه الحديدية التي كبلته منذ ما يربو على ثمانية قرون ، هي بدعة يجب الوقوف بوجهها ، وطلب بعض هؤلاء جمهور المسلمين إلى الابتعاد عنه واخراجه من القاهرة أو التخلص منه(٢٥) . وربما لهذه الأسباب كان السيد السنوسي يكن عداءً دفيناً نحو حكومة محمد على في مصر .

بعد أن أمضى السيد السنوسي عاماً كاملاً في القاهرة فتوجه إلى مكة لإداء فريضة الحج وعرض نفسه على شيوخ مكة والاستزادة من التحصيل العلمي، وأتاحت له زيارة الديار المقدسة فرصة الاتصال بالمسلمين من مختلف أقطارهم وتنائي ديارهم ، والتقى

بكبار رجال العلم وتزود من صحبتهم وعوضه عما فاته في اتصاله بشيوخه الأوائل، وكانت مكة ونجد تحت حكم والي مصر محمد علي باشا ايضاً (٢٦). ومن أبرز من التقى بهم احمد بن إدريس الفاسي المولود في فاس ١٧٤٩، وهو الرئيس الرابع لطريقة الدراويش الخضرية الشاذلية المغربية ،وهو مؤسس الطريقة الادريسيةـ الخضرية(٢٧) ،الذي ترك اعمق الأثر في نفسه ودعوته. فقد دعا هذا الشيخ الجليل إلى فتح باب الاجتهاد في تفسير القرآن والسنة وانتقد دعاة التقليد في اتباع المذاهب الأربعة .

ويبدو أن هذه المبادئ والمنطلقات الفكرية لقيت أثرها وصداها في نفس السيد السنوسي الذي كان يدعو في جامع القرويين والجامع الأزهر لذلك بصوت خافت أو بشكل مشوش ، وربما يعود ذلك لصغر سنه وليس إلى شيء آخر . وعلى اية حال فقد اقام معه وصار من كبار مريديه حتى وفاته في عام١٨٣٧ (٢٨) ، وعده شيخاً له واخذ عنه العديد من علوم القرآن الكريم والفقه والتربية وأحكام السلوك والحديث النبوي وأصول التصوف ، ثم نقلها بعد ذلك لاتباعه بتأديب النفس وتنقيتها من ألكدر والغبار بتقوى الله واتباع أوامره . وعندما غادر الادريسي مكة إلى اليمن وفي صحبته السنوسي مع بقية الإخوان حتى ميناء القنفذة ومن هناك عاد إلى مكة ، بإشارة منه ليقوم مقامه في ماله وإداء ما عليه ونشر دعوته ، وإعطاء طريقته حجمها الحقيقي وتعليم تلاميذه . و أشار الادريسي إلى امتزاج روح السنوسي في روحه كما روى عنه أحد تلاميذه بقوله" إن السنوسي منا ونحن منه ، وهو خليفتنا والقائم مقامنا ، وان ولدنا السنوسي ونحن أمرناه أن يدل الخلق على الله ويجذب الطالبين إلى الله ..."(٢٩).كما كان الادريسي يشيد بمكانة السنوسي " أما ولدنا السيد محمد بن السنوسي ، نحن أمرناه أن يدل الخلق على ﴿الخالق﴾ ويجذب الطالبين إلى الله ، إياكم ثم إياكم من كل ما يقطعكم عن صحبته فإنه النائب عنا وقد اختاره الله لذلك "(٣٠) . وفي رسالته إلى الميرغني عند نصحه بصحبة السنوسي والانصياع لنصحه في قوله ، "فلا يكن أمرها عليك ولا شيئا احب إليك من صحبة أخيك محمد بن علي السنوسي ، فعليك به فاتخذه صاحبا وصديقا ، فانه قد انسلخ من نفسه انسلاخاً كلياً كما تنسلخ الحية من نفسها ، فهو في أمر عظيم من الله ومن نفسه وانه نسخة صحيحة منا فأنزله منزلتنا ... "(٣١) .

أن اخطر ما جاء في توكيل أحمد بن ادريس للسيد السنوسي بأمر أتباعه ، أن الأمر جاء من الله وأن الله هو اختار السيد السنوسي لهذه المهمة وغير ذلك ، وهو أمر مستهجن عند السيد السنوسي تماماً كما هو مستهجن عند استاذه ، ولم نسمع أنه قال في يوم من الأيام أنه يوحى إليه من الله . ويبدو أن هذا المستوى من التقديس قد ألحق به بعد وفاته رحمه الله .أو أن الشيخ ادريس أراد أن يفرض قيادته للجماعة المحيطة به من خلال الإيماء البسيط إلى ذلك، وهو ما وقع فعلاً فقد تبعه أغلب أتباع شيخه . أن عوامل القوة في دعوته لا تعود إلى إلهام أو وحي إلهي أو شيء من هذا القبيل، وانماتكمن في شخصية السيد السنوسي الفذة واستقامته وعلمه الغزير وزهده وتقشفه وتوقعه للأحداث قبل وقوعها، وهو ناشئ عن دراية وفهم دقيق لما كان عليه العالم الإسلامي من التخلف في مواجهة الغرب المتقدم الطامع ، وكان مصير بلده الجزائر ماثلاً في ذهنه دائماً .

وفي عام ١٨٣٧ قفل السيد السنوسي راجعاً من اليمن بعدما قضى فيها عامين إلى مكة ليؤسس بها أول زاوية لطريقته على جبل أبي قبيس، ويعد هذا الحدث التاريخ الرسمي للانطلاق الطريقة السنوسية(٣٢). وفي أواخر عام١٢٥٥هجري(في كانون الأول ١٨٣٩) ازمع السيد السنوسي العودة إلى مستغانم بعد ستة أعوام قضاها في الحجاز والجزيرة العربية ، ومعه عدد كبير من الاخوان والمريدين، وترك في زاويته عبد الله التواتي آنف الذكر(٣٣).

يجدر بي أن اقف قليلاً عند أسباب عودة السنوسي من مكة بعد إنشاء زاويته الأولى مباشرة ، فقد افترض بعضهم أن انتشار دعوته بين بدو الحجاز على نطاق واسع ، أثار غيرة ومخاوف أوساط علماء مكة وأشرافها ورجال الإدارة العثمانية ، ولكن اعتراضاتهم غلفت بمبررات ليست من الحقيقة في شيء لكي تبدو اعتراضات لها ما يبررها، مثل أن تعاليم الطريقة السنوسية هبطت عن مستوى تعاليم الطرق الصوفية الأخرى لكي تقترب من تحلل البدو وترخصهم في الأمور الدينية. إن هذا الافتراض لا يثبت أمام النقد ، ذلك أن الدعوة السنوسية التي طالما قذفت بالتعصب والتزمت والقرب من الحركة الوهابية. وكيف يمكن أن تكون دعوة متزمتة ومتعصبة من جانب ، ومتحللة متزندقة آن واحد. ولكن يبدو إنها بانتشارها السريع والواسع كانت تهديداً

لامتيازات هؤلاء ومراكزهم الدينية والسياسية . ثم أن الدعوة السنوسية لم تأفل بعد مغادرة السيد السنوسي، إنما بقيت الزاوية السنوسية تؤدي دورها في الحجاز. وعلى أية حال فقد عرج السيد السنوسي بعودته على القاهرة وقصد الجامع الأزهر، وجاهر بالدعوة إلى فتح باب الاجتهاد على رؤوس الأشهاد هذه المرة، فتصدى له أبرز شيوخ المالكية ، مما اضطره إلى ترك القاهرة وهو في عجالة من أمره(٣٤) .

واصل السيد سفره عن طريق صحراء مصر الغربية إلى سيوة ثم إلى جالو- أوجلة ، ثم إلى الجبل الأخضر بين نجوع السعادي ، ومنها إلى مدن وقصبات طرابلس ، ومنها إلى تونس وفي كل هذه المواقع كان يصدع بدعوته بين الناس ويدعو إلى الإيمان ومكارم الأخلاق. ولم يتمكن من مواصلة السير إلى الجزائر بسبب متابعة المخابرات الفرنسية لحركاته وسكناته، فأوفد منه رجلاً من خلصائه ببعض الأموال والأسلحة لإيصالها إلى الأمير السيد عبد القادر الجزائري الذي كان يخوض حرباً ضروساً مع الفرنسيين(٣٥).وكان حرياً به الدخول إلى الجزائر وتأدية فريضة الجهاد، لأنه فرض عين، لولا أنه كان يزمع أمراً آخراً.

لقد كان السيد حريصاً بالتجول في نجوع وقصبات جنوب الجزائر عند عودته من المغرب الأقصى، كحرصه بالمرور في نجوع إقليم برقة أكثر من حرصه على المرور في مدنه في ذهابه إلى الأراضي المقدسة والإياب منها . ويبدو أن السيد حدد هدفه بشكل جازم كما حدد الحيز الجغرافي ، وما نشاطه في جنوب الجزائر أو الحجاز ، إلا مصداقاً لنظرته الدقيقة بأن إقليم برقة بنجوعه وسذاجة معتقدات أهله وبدائيتها ، ونأيه عن السلطات الزمنية ، يجب أن يكون الحيز الجغرافي لنشاطه . ومن جانب آخر أن السيد السنوسي على الرغم مما يكنه من مقت للاستعمار ، لاسيما الاستعمار الجاثم على بلده الجزائر ، إلا أنه رجل علم ودين وتشريع ، ودراية فيما يجوز وما لا يجوز ، وطّن نفسه أن يكون الخلفية الدينية والتشريعية التي تسند إليها حركة الجهاد في الجزائر. ويبدو ان السيد بريتشارد جانب الصواب عندما أعتقد أن السيد السنوسي اتخذ إقليم برقة ليس عن سابق دراية وتخطيط مسبق ، بل صدفة ،لاسيما أن الطريق إلى الجزائر قد أغلق امامه ، والطريق إلى القاهرة ومكة أغلق أمامه ايضاً . ولكنه يذكر في نفس المكان ، أنه بعد انشاء زاويته البيضاء في الجبل الأخضر في عام ١٨٤٢، قفل راجعاً إلى مكة(٣٦) .

لم يكن اختيار السيد السنوسي لإقليم برقة محض صدفة كما يدعي البعض ، كما لم يكن بوحي من إلهام إلهي أو أوامر غيبية كما يدعي البعض الآخر(٣٧)، وإنما كان عن سابق تخطيط ودراية. فزعم البعض إنه عندما مر ببرقة في رحلته الأولى إلى الديار المقدسة في عام ١٨٠٤أثنى على أهل برقة لما رأى فيهم من محبة الخير والصلاح " هذه بلادنا فيها تحيا أورادنا ، حيها سعيد وميتها شهيد ، طوبى لمن أراد الخير لأهلها وويل لمن أراد بهم الشر" (٣٨)، فأن صحت هذه الرواية فأن السيد السنوسي وطن العزم بثاقب بصيرته على اختيار برقة موئلاً لدعوته قبل أن يذهب إلى القاهرة أو الحجاز أو أي مكان آخر ، لعدة أسباب ؛ أولها انعزالية إقليم برقة بمساحات صحراوية واسعة جداً عن الأقاليم الأخرى، فهو منعزل عن وادي النيل صحراء مصر الغربية الشاسعة وامتداها في صحراء الإقليم. ويفصلها عن طرابلس الغرب بصحراء واسعة أخرى تطل على البحر مباشرة دون أن تترك سهلاً ساحلياً عند خليج سرت . كما أن برقة بعيدة عن سيطرة المدن المجاورة والبعيدة ، لذا فهي بعيدة عن سيطرة الدولة العثمانية المباشرة ، مع وجود بنية اقتصادية قائمة على النشاط الزراعي الرعوي تدعمه خصوبة تربة الجبل الأخضر، وتجارية أساسها تجارة الصحراء المستندة إلى طرق الصحراء من جهة ، وإلى ثغور برقة وموانئها من جهة أخرى، وإلى واحاتها التي هي في الواقع محطات مهمة على هذه الطرق لتزويد القوافل بما كانت بحاجة إليه من المياه والتمور والمواد الأخرى، وفي أحيان كثيرة تتحول إلى مراكز للتبادل التجاري، وتركيبة اجتماعية متجانسة من القبائل البدوية الرعوية المتناحرة المضطربة المنتمية إلى محيطها البدوي(٣٩).

وأن المدينة العثمانية مثل القاهرة وطرابلس وتونس وبنغازي(بدرجة اقل) ،كانت مدناً حضرية وتحكم فيها الإسلام السلفي الرسمي والطرق الصوفية الحضرية ومن ورائها الدولة العثمانية بمؤسساتها القضائية والعلمية التشريعية وعلمائها الذين كانوا يتدافعون على الذب عن إسلامها الرسمي المقرون بالعطايا والهبات التي تتناسب طردياً مع درجة الضجيج والهتاف والدعاء للحاكم بالصحة وطول العمر الذي يؤديه رجل الدين(العالم) ، وكان ذلك واضحاً جلياً من موقف هؤلاء من السيد السنوسي عندما مر بالأزهر وهو في طريقه إلى الحجاز أو العودة منه ، لذا كان على السيد أن يحسن الاختيار بين البادية والمدينة . وأن أهل برقة لاسيما نجوعها كانوا بحاجة شديدة لهذا

الداعية المتبحر في علوم الدين واللغة والشريعة ، بكونهم يجهلون كل شيء من هذا القبيل ، وهم زاهدون بأمر الدين وكانوا لا يعيرون بالاً إلى الصلاة ، سادرون في غيهم ممعنون في أعمال السلب والنهب وقطع الطرق على القوافل ، وعلى الرغم من كل ذلك "فقد كانوا أقل فساداً من سكان المدن"(٤٠)، فهم مؤمنون إيماناً عميقاً بقضاء الله وقدره ويعدون أنفسهم مسلمين مخلصين في تقديسهم اللامحدود للأولياء والمرابطين ، ومواظبتهم على الصيام.

وفي نظرهم أن السيد السنوسي المبارك الذي يجترح المعجزات ، يمكن أن يمدهم بشيء من بركته في مجالات مباركة القطعان ورقي المرضى ،الذين كانوا على شفا الموت أو على الأقل يعلمهم ما كانوا يجهلونه من امر دينهم، أو أن يحكم في منازعاتهم بالشريعة الاسلامية، أو يقوم بتعليمهم شيء من القرآن الكريم أو السنة النبوية ، وهي على العموم أمور مجهولة لديهم (٤١) . ويورد لنا عبد القادر عبد الملك بن علي ، كيف أن السيد السنوسي رقى أحد شيوخ القبائل فشفاه وكان إلى الموت اقرب منه إلى الحياة(٤٢). ومن الأمور الأخرى أن الوالي العثماني علي عشقرأراد أن يفيد من هذا المرابط الكبير أن يفرض سطوته على ولاية طرابلس التي كانت ثائرة على الحكم العثماني وإقليم برقة من خلال الإعلان بأنه من أتباع السيد السنوسي، ويبدو أن وفادته كانت في الوقت المناسب فالأحداث على أشدها، ويمكن لهذا المرابط أن يسهم في تهدئة الأوضاع في الولاية والإقليم(٤٣) .

وعلى أية حال كان بناء الزاوية البيضاء(أم الزوايا) مناسبة لمعرفة مدى تغلغل تعاليمه في نفوس أهل برقة. فقد كشف باختياره موقع الزاوية في مكان بالقرب من ضريح الصحابي رافع بن عبد الله الأنصاري المدفون في الجبل الأخضر في القرن الأول الهجري (القرن السابع الميلادي)أن يعطي للزاوية بعداً قدسياً، في ربوة يصعب الوصول إليها ويسهل الدفاع عنها، فأعطاها بعداً عسكرياً استراتيجياً ،فكشف بذلك عن نيته أن بناء الزوايا بداية لمشروع أكثر أهمية ، وهو جعلها قلاع او مراكز دفاعية ضد الاعتداءات التي توقع حدوثها في قابل الأيام . وقد تحملت كل قبيلة من قبائل برقة وزر تكاليف بناء الزاوية أو الزوايا التي تقع في مضاربها .وقد أشرف أبو بكر بو حدوث زعيم البراعصة آنف الذكر بنفسه على بناء الزاوية البيضاء، بل كان يخلط الطين بالجلة

ويحمله على عاتقه بعظيم منزلته للبنائين المنهمكين في بناء الزاوية والمسجد الملحق بها رغبة منه في الأجر والثواب. وتسابقت القبائل في الحصول على شيء من البركة التي حلت في ربوع برقة ، وكان سخياً في منح بركته لمن يرغب من القبائل، فتراه في حركة دائبة في تحديد أماكن هذه الزوايا ، لاسيما الاستراتيجية ، وتعيين القائمين عليها وتنظيم الحياة فيها ، وتكريس الولاء لها وتقريب النفوس البرقاوية المتباعدة ، ورسم أخوية الإيمان بينهم "إنما المؤمنون أخوة". وببناء الزاوية الأولى فقد مزج السيد السنوسي الأهداف الدينية بالأهداف الوطنية الاجتماعية وفي نفس الوقت انتقل السيد السنوسي من الدعوة إلى تطهير الأبدان والسرائر من الأدران والضغائن ، إلى واجب تطهير المجتمع من الشرور والمظالم ، فربطت الفرد البدوي ربطاً محكماً بمجتمعه ، واصبح قيام الزاوية السنوسية رمزاً للانتماء الوطني وعامل من عوامل الارتباط المجتمعي بالأرض ، بعد أن كان البدوي يعتقد أن أي أرض بإمكانه أن ينصب بها أوتاد خيمته ، هي وطنه . و تضاعف سريعاً عدد هذه الزوايا حتى بلغ عشرين ونيف منتشرة في ربوع الجبل الأخضر والدفنة(٤٤) .

لم يبلغ أي حاكم ديني أو زمني في نفوس بدو برقة ما بلغه السيد محمد بن علي السنوسي من التقديس والتقدير ، بسبب بساطته وزهده وعمق علمه وقربه إلى الله ، وعمق تأثيره فيهم بوعظه وارشاده وبعده عن التغرض ، فكيف تمكن هذا الشيخ الذي صرف قسطاً كبيراً من عمره على طرق القوافل بمرافقة الأبل في سيرها الوئيد ، أن يبلغ هذه الدرجة في تلك النفوس القاسية، التي جبلت على الصخب والثأر والغزو واقتراف المحرمات وركوب الباطل؟ . ذلك عندما هاجر السيد السنوسي إلى الحجاز في سفره الثاني الذي استمر ثمانية أعوام متواصلة قضاها في عمل متواصل في بناء مجموعة من الزوايا في المدينة والطائف وينبع والحمراء وجدة ،فكانت فضلاً عن كونها مساجد ومدراس للتعليم ، كانت مضافات عامة يستقبل فيها المسافرين والزوار من أجل إسكانهم وإطعامهم مجاناً . وجيء إليه بولديه محمد المهدي ومحمد الشريف إلى محل إقامته بمكة المكرمة . ولما طال انتظاره وخشي أهل برقة أن لا يعود الشيخ إليهم ، جاء إليه حشد من أعيان برقة وشيوخها، من أمثال الشيخ أبو شنيف الكزة الذي تعدى المائة من عمره ، والشيخ عمر جلغاف، وعبدالله أبوسويحل وغيرهم ليلتمسوا منه الموافقة

بالعودة إليهم ، ولم يخيب السيد رجاءهم فتوجه إلى برقة واستوطن في قصر العزيات ومكث هناك عامين وبنى واحدة من الزوايا المهمة (٤٥).ولكن السؤال الذي تجب الإجابة عليه ، لماذا لم يعد السيد السنوسي إلى الزاوية الأم في البيضاء ؟.

ويبدو أنه عمل بتدرج وئيد ووجد من الحكمة اتخاذ مقر جديد لدعوته غير الجبل الأخضر ، ففي عام ١٨٥٦خرج السيد السنوسي من العزيات قاصداً الجغبوب(الجغابيب)، وكان عازماً على إنشاء زاوية بعيدة عن السلطات العثمانية على الرغم من العلاقات الطيبة التي كانت تربطه بها ، لأنه كان دائما يفضل الابتعاد عن السلطات مهما كان شكلها وعدم الاحتكاك معها، وكان اختياره موفقا ، فضلاً عن انه كان يشعر أن منطقة الجبل الأخضر والمناطق القريبة من سواحل البحر المتوسط مهددة دائماً بقرب احتلالها من قبل القوى الأوربية . ولا يحتاج هذا الأمر إلى تفكير عميق فالدولة العثمانية تعيش في أرذل العمر ، وليس بإمكانها الدفاع عن حياضها، وما وقع لبلده الجزائر لازال ماثلاً أمام بصيرته (٤٦) ، وكان يقدر عدم امكانيته بمقدراته الذاتية أن يقف أمام أي من القوى الأوربية على الرغم غير حيادي بين الدولة العثمانية وتلك القوى . فضلاً عن أن الدواخل البرقاوية تعيش فراغ سياسي نتيجة لبعدها الجغرافي ، فلماذا لا تملأ الدعوة السنوسية هذا الفراغ .

وكانت الجغبوب وما حولها مكاناً تكثر فيه القبائل العربية المستقلة والتي قبلت بالدعوة السنوسية ودخلت في عداد الاخوان ، وهي لاتشبه قبائل الجبل الأخضر الصعبة المراس . ويبدو أن السيد السنوسي على الرغم من الطابع الأممي الإسلامي لدعوته التي نادى فيها بالمساواة بين اتباعه وغيرهم من أجل بناء أخويات اسلامية حقيقية لحمتها وسداها الإسلام ، ولكنه أراد بالانتقال إلى الجغبوب التخلص من تأثير قبائل السعادي الكبيرة المنغلقة على ذاتها المتمحورة حول قيمها وتقاليدها وتمسكها بقيم البداوة بشدة . وهذا الأمر لا يتوافق مع منطوق الدعوة السنوسية، الذي تشكل المساواة الإسلامية حجر الزاوية فيه . وكان أبناء القبائل البرقاوية ينظرون باحترام كبير للمرابطين، لاسيما مرابطي البركة ، وعلى راسهم السيد السنوسي، إلا أنهم في الوقت نفسه يعدون هؤلاء غرباء عن لحمة القبيلة ، ولا يمكن أن ينظر إليهم غير ذلك في يوم من الأيام . لذا كان حريا بالسيد السنوسي أن يبعد بالإخوان عن هضبة الجبل الأخضر. وفي

تقديري المتواضع كانت الجغبوب هي الخيار الجيد مقارن بالجبل الأخضر. أن تلك الطبيعة القبلية المنغلقة هي التي حتمت على الدعاة السنوسيين وفي مقدمتهم السيد السنوسي الكبير أن يعين لكل قبيلة زاويتها الخاصة بها وهي موزعة على اساس جغرافي قبلي، أي عدم اشتراك مجموعة من القبائل برعاية زاوية واحدة ، حتى لا يبدو التنافس بين هذه الزوايا أو التنافس القبلي داخل الزاوية الواحدة هو امتداد للصراعات القديمة بين القبائل أو العشائر أو العائلات(٤٧) .

وبذلك طوع السيد السنوسي التكتيك التنظيمي لدعوته لتتلاءم مع التكوين القبلي من اجل إستراتيجية مركزية باحتواء هذه القبائل والاعتماد عليها في نشر الدعوة السنوسية في برقة وطرابلس ومجاهل الصحراء وفي الجهات الأبعد التي كان أهلها في ذلك الوقت على وثنيتهم القديمة . وفضل أن ينتقل إلى جهة الجنوب ويقيم زاويته الجديدة في جوف الصحراء في مكان منعزل يصعب الوصول إليه من قبل القوى الأخرى . وكانت عزلة مهمة جداً للسيد السنوسي لنشر مبادئه بين اتباعه وتحصينهم فكرياً بعيداً عن التيارات الخارجية . مع وجود قاعدة اقتصادية لابأس بها متمثلة بتجارة الصحراء، إذ كانت الجغبوب تتحكم بمفاتيح جملة من الطرق التجارية الصحراوية وتقاطعاتها مع طريق الحج الصحراوي الذي يمر منها أيضاً . وثمة طريقان يربطان الجغبوب بداخل أفريقيا الغربية حتى بحيرة تشاد أحدهما نحو الشرق من سوكنة إلى مرزق ، والاخر إلى الغرب منه إلى غدامس وبلاد الطوارق (٤٨).على اية حال أن اختيار الجغبوب كان أصدق تعبير عن الرؤيا الاستراتيجية التي يتمتع بها السيد السنوسي الذي حنكته التجارب .

ولكن هل اهتدى إلى الجغبوب صدفة أم أن هناك أسباباً وجيهة حملته على ذلك؟ . من الصعب الإجابة على هذا السؤال، إذ توجد مواقع أخرى ربما أكثر ملائمة منها . وعلى الرغم من ان الجغبوب ليست مكاناً مسراً ولا تدل على الرفاهية ورغد العيش ولا يوجد فيها سوى بئر مرة واحدة ، بيد أنها ملاءمة تماماً للنمط التقشفي من أنماط الحياة الذي يؤمن به السيد السنوسي ويدعو إليه ، وملاءمتها أيضاً من الناحية الصحية فهي خالية من الملاريا ذات مناخ حار جاف مفيد لأمراض المفاصل(٤٩) . وبمجيء السنوسي اليها في شهر تشرين الأول(أكتوبر) عام ١٨٥٦م ، وبنائه لزاويته الكبرى صارت مهد

أمان ومشرق أنوار ومركزاً للعبادة والهداية ومحط لجامعة إسلامية عظيمة كانت تعد بعد جامعة الأزهر في تأثيرها في أفريقيا ،ومركز لانطلاق الدعاة السنوسيين إلى جهات الصحراء المختلفة، ونواة لحكومة اسلامية بعيدة عن التأثير السياسي العثماني والبريطاني والفرنسي والمصري. فغرس فيها الاشجار وعالج نقص المياه فيهابصهاريج كبيرة يتجمع فيها احتياط وفير منه واستخرج عيون المياه ، وتوسع في البناء ، وصارت سريعاً مركزاً اقتصاديا مهماً في الصحراء، ولم يطل مكثه حتى شرع في بناء مقره الجديد في الواحة ، وكان عبارة عن كتلة كبيرة من البنايات الحجرية مكونة من طابق أو طابقين تشتمل على مسجد ومدرسة ومكتبة فخمة احتوت على أكثر من ثمانية آلاف كتاب وتصنيف في الشريعة والفقه والفلسفة والفلك والتنجيم والشعر والتاريخ ، كانت مراجع لعلمائها ومعلميها الأفذاذ ، وحولها بيوت الاخوان المكلفين بإدارة العملية التعليمية ، ومهاجع الطلبة الذين تعدى عددهم في كل مرة ثلاثمائة ، ثم بيوت عائلة السيد السنوسي ، ومضافات للزائرين أو عابري السبيل، ومهاجع للعبيد أو العاملين في الواحة ومطابخ وآبار لتوخي المياه العذبة في مظانها الصخرية ، وأسهم أكثر من خمسمائة عبد وأكثر من ألف جمل في نقل الأحجار من المقالع الصخرية (٥٠) .

واجه السيد السنوسي وأتباعه مشكلة لا يمكن للواحة بمقدراتها المتواضعة ومنتوجها القليل من التمر تذليلها ،فكيف لها أن تكلأ أكثر من ألف أو ألفين من الأتباع والطلبة والعبيد ، لذا اضطلعت الزوايا الأخرى في الجبل الأخضر والعزيات بإرسال الفائض السنوي من المؤن وأصناف السلع مثل الجلود والصوف والقمح والزبدة والعسل واللحوم ونقود وبضائع مستورد مثل الشاي والسكر والأرز والأقمشة والأسلحة ، وما لم يتوفر من السلع والبضائع كانت التجارة الصحراوية كفيلة بإحضاره فضلاً عن قطعان من الإبل كانت ترعى في غرب الواحة حيث يتوفر الكلأ، لأغراض الحليب واللحم والتجارة(النقل) (٥١) .

قضى السيد السنوسي عامين في الجغبوب ، كانرحمه اللهيعاني فيها من آثار السم الذي سقيه بتدبير من مناوئيه في الجامع الأزهر . وفي العام الثالث اشتد عليه المرض في ربيع عام ١٨٥٩فتوفي في يوم الاربعاء التاسع من صفر ١٢٧٦هـ ، الموافق ٧ ايلول(سبتمبر) عام ١٨٥٩م، بمدينة الجغبوب ، ودفن فيها بعد حياة حافلة امتدت أربعة

وسبعين عاماً(قمرية) قضاها في جامعات وجوامع الجزائر والمغرب الأقصى والقاهرة ومكة واليمن وطرابلس وبرقة وصوامعها وزواياها وفيافيها ، وانصرم ردحا من حياته في نجوع البدو في جنوب الجزائر وبرقة ومكة ، وقضى ردحاً آخر مرافقاً لقوافل الحج ذاهباً وآيباً بين المغرب الأقصى ومكة المكرمة في سيرها الوئيد، أو على ظهور السفن الشراعية بين جدة وتونس، ومع ذلك وجد الوقت الكافي لوضع المؤلفات العلمية ، فقد ذُكر أن السيد السنوسي وضع أكثر من اربعين مصنفاً بين رسالة وكتاب في الفقه والتاريخ والادب (٥٢) . وتبعه كثيرون كمريدين له من المغرب والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة، واستحوذت عليهم تعاليمه وشخصيته الآسرة ، فتبعوه طائعين مخلصين ، حتى أن بدو برقة المتحفظين القليلي الاكتراث تقبلوا تعاليمه ونظروا إليه كمرشد روحي وزمني ، وكان الذين لا يفهمون أذكاره وأوراده وأدعيته، يقدرون قدسيتها ويجدون من يكتبها لهم في ورقة تطوى في قطعة من الجلد وتعلق على اجسادهم لكسب البركة وطرد الأرواح الشريرة. وفي الخمسين من عمره بنى أول زاوية على جبل ابي قبيس في مكة المكرمة، وفي الأعوام العشرين اللاحقة استطاع أن يجعل من السنوسية طريقة لمنهج حياة في أصقاع واسعة من غرب جزيرة العرب وشمال أفريقيا من وادي النيل إلى تونس ، ومن البحر المتوسط حتى جنوب الصحراء الكبرى (٥٣) . تزوج أربع مرات ، واصهر في واحدة منها إلى أهل برقة وانجب عدداً من الأولاد ، لم يبق منهم على قيد الحياة سوى محمد المهدي ومحمد الشريف ، وهما لأم طرابلسية، وكانا عند وفاة والدهما لم يبلغا الرشد بعد (٥٤) .

مبادئ الدعوة السنوسية

كان محمد بن علي السنوسي رجلاً عظيماً طويل القامة حسن المظهر عذب الكلام مرشداً اسلامياً ،وما أنجزه في حياته يعد إنجازاً عظيماً يستحق الثناء والتقدير . وكان أستاذا ومثالاً طيباً للأساتذة المتجولين العظام الذين كانوا يطوفون البلدان في تلك الحقبة التاريخية ،مدفوعاً ببواعث دينية واجتماعية ذات طابع أممي إسلامي تجاوز الحدود الإقليمية ، فكان يشعر بالطمأنينة والراحة في مكتبات فاس والقاهرة وجوامعهما وصوامع مكة أكثر من عرعر الجبل الأخضر وزعتره بين البدو القساة الرؤوس . ولكنه

يبدو نجح في توطين نفسه على الصعاب من أجل بناء دعوة عظيمة في الزمان والمكان المحددين .

أن السنوسية هي طريقة صوفية أو دعوة ابتدأت سنية محضة ،وانتهت طريقة سنية قريبة جداً من مدرسة أهل البيت عليهم سلام الله وصلواته ، وهي ليست مذهباً ، بل هي أخوية اسلامية ، وكان السيد الشريف السنوسي قبل أن يصدع بدعوته ، عالماً صوفيا مالكياً مجدداً، دعا إلى مزاوجة المذهب المالكي بالصوفية الشعبية . والمالكية والصوفية أهم الملامح الاسلامية في شمال أفريقيا ، فعكف في بداية حياته على دراسة الفكر الصوفي في الجزائر وفي المغرب الأقصى . فانتقد التقليد والتزمت الديني في المذاهب الأربعة ، لاسيما في المذهب المالكي فدعا إلى فتح باب الاجتهاد إلى جانب القرآن والسنة،التي وصفها بعدم الدقة ذلك أن الأحاديث النبوية جمعت بعد مائتي عام من وفاة الرسول ، ولا نفترض أن أحداً ألمّ بها كلها ، ولما جمعت جاءت معانيها متناقضة ، معنى هذا أن بعضها مكذوب، والبعض الآخر مفقود. ونتيجة للتطور العلمي فإن علماء القرن التاسع عشر أصبحوا أكثر إلماماً بالأحاديث النبوية من علماء القرن التاسع، لذا هم أكثر قدرة على المقارنة والتمحيص والاستدلال والأخذ بالصحيح واستبعاد المشكوك فيه، من أجل توحيد الأمة الإسلامية على سياق توحيدي محدد ، وهذا لا يتم لعلماء القرن التاسع عشر إلا بفتح الاجتهاد(٥٥).وفي الوقت نفسه انتقد الانهزامية والاتكالية والاعتماد على الصدقات في تيسير سبل العيش والانصراف كلية إلى العبادة والإعراض عن الأعمال الدنيوية في الفكر الصوفي، كما كانت تفعل الطرق الصوفية. أن الصوفية عند السيد السنوسي هي تنقية النفس والتزام الجانب العقلي والابتعاد عن الحركات والممارسات الممجوجة، وأن تجعل من الفرد مسلماً طيباً وليس صوفياً طيباً، وهي شيء مضاف إلى الإيمان وليس بديلاً عنه على حد تعبير الدكتور عبد الجليل الطاهر(٥٦) . إن الدين عند السيد السنوسي سبيل حياة وهي " عبادة وعمل" ودعا إلى تبسيط الإسلام للفئات الشعبية من حملة الإدراك البسيط ، ولكي يصبح المرء مسلماً سنوسياً لا يحتاج إلى درجة عالية من التحصيل العلمي بل فقط القدرة على الصلاة والذكر" وأن تفعل الخير وتتجنب الشر" (٥٧) .

ولم تكن الدعوة السنوسية منغلقة على نفسها، بل هي دعوة منفتحة أكثر عصرنة من غيرها نظراً لطبيعة أهدافها، التي اتصفت بالعمومية وبعدها عن التطرف والتعصب لتشمل العالم الإسلامي بأسره ، ولأنها عدت نفسها إحدى دعائم اليقظة الإسلامية العامة، وتمكنها من إنشاء شبكة هامة من العلاقات الطيبة مع الحركات والمراكز الإسلامية الأخرى، واعتياد قادتها إرسال النجباء من دعاتها، وشيوخ زواياها ممن أتموا تعليمهم في معاهدها لإكمال دراساتهم في طرابلس والقيروان والأزهر، ولم تصادر استقلاليتهم في التعبير عن أفكارهم، وتركت لهم حرية الحوار وتبادل الرأي مع المدارس الفكرية والإسلامية الأخرى. فقد انتمى السيد السنوسي قبل تأسيسه لدعوته إلى أكثر من طريقة في ذات الوقت ولم يمنع منتسبي الطرق الأخرى الانتماء إلى دعوته ، ولم يمنع دعاة دعوته وأساطينها ومعلميها من الانتساب إلى الطرق الصوفية الأخرى. إن أعداءه من المسلمين هم أولئك الذين"يشوهون سمعة المسلمين "(٥٨) .

فقد عبر السيد السنوسي بهذه المميزات عن فكر منفتح بعيد عن الانغلاق الفكري والتزمت الذي كان عليه محمد بن عبد الوهاب وأتباعه الذين يكفرون جميع المسلمين على حد سواء . وقام أتباعه بدور مخلص في الدعاية له ولأفكاره ولدعوته الأمر الذي أدى إلى اتساع دائرتها وذيوع صيتها وتعلق النفوس بمؤسسها. فأذكوا بذلك الآمال بالإصلاح رغم سوء الإدارة العثمانية، وأيقظت الشعور بأهميته بأنه السبيل السليم للقضاء على أمراض المجتمعات الإسلامية. ونجح بإخلاصه الشديد في تشخيص أمراض المجتمع الإسلامي ووصف الدواء الناجع لها. وجاءت بداية التناقض مع الإدارة العثمانية عندما أكد على فتح باب الاجتهاد على وفق المذهب الحنفي ؛ المذهب الرسمي وهو ما تناقض تناقضاً مباشراً مع فلسفة الدولة (٥٩).

انتقد السيد السنوسي فكرة الفرقة الناجية التي تتعارض تماما مع نظرته الأممية وحصرها أتباعأحد المذاهب الأربعة، واستدل على ذلك بقوله، فكيف بمسلمي القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام إذ لاوجود لمقلدي المذاهب الأربعة ؟، واستعاض عن ذلك بقول الله سبحانه وتعالى من سورة آل عمران "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا" أي أن كل من اعتصم بحبل الله، اي القرآن الكريم هو من الفرقة الناجية . وأن كل ما جاء به الصحابة أو ما جاء به أصحاب المذاهب الأربعة وهو مخالف لما جاء به

النبي ﷺودعا إليه أو ما كان عليه، ويجب على من جاء به الإقلاع عنه. وأشار إلى القول الشريف " من كفر مسلماً فقد كفر" واستدل على ذلك بقول الله تعالى في سورة النساء "ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السّلام لست مومناً". وأن الخطأ في ترك ألف كافر أهون عند الله من سفك محجمة من دم انسان برئ . وأن يخطئ السلطان في العفو أحب إلى الله من أن يخطئ في العقوبة(٦٠) . وهو بذلك يخالف تماماً محمد بن عبد الوهاب وأتباعه ، الذين كانوا يوزعون تكفيرهم يميناً ويساراً ولم يسلم من تكفيرهم أحد .

وعلى الرغم من ان السنوسي انتقد بعض الطرق الصوفية وممارساتها في كتيبه "السلسبيل المعين في الطرق الأربعين ، إلا أنه كان صوفياً لا يشق له غبار، فقد اعتقد أن تعدد هذه الطرائق هو تعدد السبل إلى الله ، ومع ذلك دعا إلى الوحدة الإسلامية من خلال توحيد الطرق الصوفية المختلفة على القرآن والسنة أي أن الوحدة الإسلامية عنده هي وحدة الإسلام الصوفي(٦١)، وعلى المرء أن يوفي بالحد الأدنى من العبادة والشروط الأساسية للإسلام دون الاهتمام بالتفاصيل. لقد كان السنوسي الكبير وخلفاؤه يعارضون كصوفيين إلى درجة التحريم الحركات البدنية العنيفة المصاحبة لأصوات الآلات الموسيقية الرتيبة التي تؤدي إلى نوبات جسمانية تشنجية يسهل معها انفاذ الأدوات الحادة في أجزاء البدن والرقص والإنشاد في أذكار وأوراد الطرق، التي تمارس عند غيرهم من الطرق الأخرى من أجل الوصول إلى حالة من التجلي عند العيساوية والعروسية والرفاعية والسعدية(طرق صوفية) المنتشرة في المدن، التي يأنف منها بدو برقة. بل أن التجلي عندهم حالة من السلوك يمكن بلوغها بالعقلانية، والرياضات الفكرية المتسمة بالهدوء والتقشف والزهد في العيش والأخلاق الحسنة، والاندماج في ذات النبي العظيم واستحضار صفاته والابتعاد عن نواهيه بحيث لا يسمع الصوفي سوى أسمه الكريم، وليس الاندماجبالذات الإلهية على صوت الموسيقى الرتيبة المصاحبة للحركات الجسمانية العنيفة آنفة الذكر . وبذلك يجوز التبرك والتوسل والاستسقاء والاستشفاء بضريحه، ويستشهد على ذلك أن المسلمين تبركوا بماء وضوئه وبالدماء الناجمة عن حجامته وشعره الناتج عن حلاقته (٦٢). وهذه الممارسات بمجموعها من روافد الإيمان وليس بديلاً عنه(٦٣) . ثم يأتي بعد ذلك من يزعم بأن الدعوة السنوسية، هي امتداد للحركة الوهابية .

على الرغم من أن السيد السنوسي لم يطلب من الفرد أكثر من الصلاة والصوم ليكون مسلماً صالحاً، إلا أنه يرى أن الإسلام منهج عمل واسلوب حياة ، فقد أكد على تحريم شرب الخمر، وهو تحريم قرآني دون هوادة ، وهو أمر يتفق عليه المسلمون بمختلف مذاهبهم وطوائفهم على مر العصور ، ولم يدع أحد غير ذلك . كما حرم تعاطي السعوط والتدخين في أول الأمر(ربما التبغ المخلوط بالنطرون) . وهو تحريم يكاد تجمع عليه كل المدارس الفكرية والصحية الحديثة بكونه غير معروف عند المشرعين القدامى قبل القرن السادس عشر ، لما له من ضرر على الصحة العامة . ولم يحرم السيد السنوسي القهوة ،التي لا يشربها أهل برقة ، وإنما استعاضوا عنها بشرب الشاي ، واعتادوا أن يطعموا ويلبسوا جيداً ، وهم مسرفون في استعمال الطيب إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا، كما أنهم ذوو وجوه مبتهجة ضحوكة ومزاح برئ وعشرة ونوادر لطيفة(٦٤) .

ونظر الاخوان السنوسيون نظرة احترام وتوقير لأضرحة الأولياء ، وعدوا بعض أجدادهم من هؤلاء . ولم ينهوا رجال القبائل عنتقديسهمتوقيرهم ، فبنوا عليهم قباباً بهية بيضاء لماعة وكانت كل قبة قائمة على أربعة أركان وتحت كلمنها ضريح خشبي دقيق الصنع يكتنف الرفاة مغطى بقماش ملون تطرزه آيات قرآنية مكتوبة على أديمه . وتعد هذه الأضرحة من مصادر البركة والقداسة ، ولا يجوز إهاجة الآمن عندها وهي مكان أمان وأمن ، فمن الممكن إيداع المقتنيات الثقيلة والأدوات الزراعية عندها في وقت الرحيل دون أن يتعرض أو يعبث بها أحد . ويجوز طلب المغفرة لأصحابها من الله ، بل والتوسل والاستسقاء بها ، وطلب المغفرة من الله عندها . أما القبيلة التي تعدم ضريح ولي فأنها تستحضره بالسماح لمرابط أن يدفن في أرضها . وتقام عند الأضرحة احتفالات سنوية كانت القبائل تحضرها، لاسيما إذا كان ضريح الولي يتوسط بين عدد من القبائل. وهي مناسبات لفض المنازعات وتسوية الخصومات بين هذه القبائلوإذا لم يتوصل المجتمعون إلى حل يرضي جميع الأطراف عند النزاع على قطعة من الأرض مثلاً ، تهدى الأرض إلى مزار ذلك الولي لتصبح إرثاً في نسله ، وهو حل يرضي جميع الأطراف.لذا نرى في بعض الأحيان قطعة صغيرة الأرض بين قبيلتين أو ثلاث يمتلكها مرابطون، مثل لأرض التي تمتلكها قبيلة أولاد الشيخ بين مناطق سيادة العواقير وعابد

والعرفا . و منحت آبار وعيون ماء، كانت موضع نزاع إلى أولياء متوفين آلت إلى احفادهم (٦٥) .

كانت هذه المعتقدات قبل الدعوة السنوسية، وباركها السنوسيون وعملوا بها فعند وفاة داعيتهم الأكبر محمد بن علي السنوسي ، وظلوا يقرأون القرآن على رمسه ردحاً من الزمن حتى تمّ أربعون يوماً ليلاً ونهاراً استغفاراً له. وبنوا عليه قبة بيضاء لم ير مثلها في برقة من قبل ، جلب لها المعماريون الماهرون من مكة المكرمة فكانت واحدة من عجائب الدنيا (في برقة)وظل ضريحه مصدراً للقداسة والبركة ومحطاً للتوقير في الحقب اللاحقة (٦٦) .

يعتقد البعض بأن الدعوة السنوسية موحى بها من الحركة الوهابية (٦٧) أو أن السيد السنوسي نسخ دعوته عن تلك الحركة نسخاً مشوها ، وذلك يجانب الحقيقة تماما لحزمة من الأسباب ؛ منها مثلاً لا يوجد أي رابط من أي نوع بينهما سوى أن دعوتيهما نشأتا في حيز جغرافي واحد هو الحجاز بفارق زمني كبير يمتد إلى قرن من الزمن . إذا أخذنا بالحسبان أن زاوية أبي قبيس تعد بواكير الدعوة السنوسية . ففي المدة التي حل بها السيد السنوسي في الحجاز، دخلت الحركة الوهابية في سبات عميق بعد الضربات الماحقة التي تعرضت لها من الجيش المصري الذي ألجأها أن تلتزم الصمت بالنيابة عن الدولة العثمانية وتنزوي بعيداً في صدور أتباعها ، وشقت لها أنفاقا في الخفاء بعيداً عن المجتمع الحجازي ، وذلك في الربع الأول من القرن التاسع عشر، أي قبل أن يزمع السيد السنوسي الحج إلى الديار المقدسة بسنوات طويلة.

ولعلي أكون على بينة من أمري إذا قلت إن الدعوة السنوسية هي دعوة مالكية ـ صوفية مجددة ابتعدت كثيراً عن التقليد والتزمت الفكري والعبادي ، واقتربت بمراحل طويلة من الوسطية والتسامح لتتلاءم مع العقلية البدوية، مع عدم تهاونها في جوهر العقيدة الإسلامية. فعلى الرغم من أن المذهب المالكي هو مذهب معتدل بين المذاهب الأخرى إلا أن السيد السنوسي خالفه في مجموعة من الممارسات والشعائر واقترب من مدرسة أتباع أهل البيت العبادية ومنها مثلاً ؛القبض في الصلاة والقنوت فيها ورفع الأيدي بالدعاء في حالة القنوت، والقصر الجمع في الصلاة في السفر، فكان يجمع تارة جمع تقديم وأخرى جمع تأخير، إلى تسعة عشر يوماً(٦٨)، وربما كان ملزماً على

الإفطار في السفر، لأن الصلاة والصوم متلازمان فلا يجوز أن يقصر ويجمع في الصلاة دون الإفطار في الصوم وهي في مجموعها لاتعد بديلاً عن الصلاة بل مهذبة لها على وفق السنة، وألف في ذلك مصنف " المسائل العشر"(٦٩) ، بيد أنها من الكبائر عند محمد بن عبد الوهاب وأتباعه ، لاسيما، الجمع والقصر في الصلاة والإفطار في شهر رمضان في حالة السفر أو رفع الأيدي في القنوت أو قراءة البسملة جهرة في سورتي الفاتحة والسورة الأخرى .

ورصد هاملتون دوفرييه اختلافات أخرى للدعوة السنوسية عن المالكية والسلفية الحنبلية، التي ادعى محمد بن عبد الوهاب بالاستناد إليها في حركته عن طريق ابن تيمية وتلميذه ابن القيم فقال"**زعم كثير من المسلمين على وجه الخصوص أتباع الطرق الصوفية الأخرى ، أن السنوسيين خمسيون ﴿شيعة﴾أي لا يتبعون أي من المذاهب الأربعة ، وهذا الاتهام ليس بعيداً عن الصحة لأنهم يختلفون في بعض العبادات كالصلاة حيث يمدون بعض المقاطع أو يختصرون، ولهذا وقع مكروه لدى السنة، كم هو مريع لديهم أن يستعيض السنوسي عن آمين الطويلة في نهاية سورة الفاتحة بواحدة قصيرة . وعندما كان أتباع المالكية والحنابلة يلتقون لا يصلوا إلى اتفاق بشأن هذه ﴿الشكليات﴾ التي ترفع عنها السيد السنوسي ، فيرتفع الضجيج بشأن هذه القضايا القليلة الأهمية . بيد أنه لم يجرؤ أحد أن يتهم السنوسيين بانهم خمسية لأنهم يسيطرون حيثما يحلون" (٧٠).**

كان الدعاة السنوسيون وفي مقدمتهم السيد السنوسي الكبير يدعون ويقدسون الاطروحة المهدوية التي تفترض بظهور المهدي المنتظر من سلالة الإمام الحسين بن على بن أبي طالب وفاطمة بنت محمد (عليهم السلام)(٧١)، في آخر الزمان، ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجورا، وهو بذلك يخالفما ذهب إليه أتباع المذاهب الأربعة(الأشاعرة).فكان رحمه الله يردد في حضرة ابنه محمد المهدي " أنا من جماعة المهدي " فردت عليه فاطمة البسكرية ؛ زوجته الرابعة وكانت حاضرة "أهومن جماعتك أم أنت من جماعته" ؟، فيؤكد مرة أخرى أنه من جماعة المهدي(٧٢).وهو بالتأكيد لا يعني ابنه المهدي، مع عظيم تواضعه وتوقيره له ، وانما قصد شيئاً آخر . ومن سياق هذا الخبر نستشف إنه كان يؤمن بعمق بالمهدوية . في مقابل السفياني المنتظر الذي ينتظره أتباع

محمد بن عبد الوهاب، الذين لا يؤمنون بالأطروحة المهدوية كما يؤمن بها أصحاب المذاهب الإسلامية على اختلاف مشاربهم، بل يحملون حقداً لا هوادة فيه لفكرة المهدي من آل محمد (صلىاللهعليه وآله)، فبادلهم سكان الصحراء الأفريقية كراهية بكراهية . ففي حوارية نقلها لنا الرحالة البريطاني جيمس ريتشاردسون الذي ساح من طرابلس إلى غات في عام ١٨٤٥ــ ١٨٤٦ ، لمراقبة تجارة الرقيق في الصحراء الكبرى ،فذكر أحدهم ، " **خلال أربعين عاماً من الآن﴿١٨٤٥﴾ سيظهر أبوعبدالله محمد القرشي الفاطمي وسيقتل جميع الكفرة ، ويحل معه العصر الذهبي . . . ثم يظهر مسيح اليهود . . . ثم يظهر المسيح بن مريم . . . ، ثم يظهر يأجوج ومأجوج . . . وفي خاتمة المطاف يأتي الوهابيون ليحملوا اليهود على ظهورهم﴿ويدخلوا معهم ﴾إلى جهنم "(٧٣).** أن هذا القول هو من حوشي الكلام ، وغير دقيق تاريخياً ، ولكنه يبين مدى كراهية سكان الصحراء من أبناء المذهب المالكي لأتباع محمد بن عبد الوهاب، مقارنة بالتوقير والاحترام والتقديس الذي أظهره هؤلاء للسيد السنوسي حفيد السيدة فاطمة عليها السلام .

وكان السيد السنوسي يحمل مودة كبيرة لأهل بيت النبي ، ويعد نفسه سليل البيت النبوي ، وقد بنى مجده على هذه الفكرة فتحمل ما وضع على عاتقه من عظائم الأمور جراء هذا النسب. وهو مهيئ أن يحمل لواء الإصلاح في الأمة فضلاً عما أكتسبه من علم غزير وحكمة طاغية . لذا دعا أن تكون الخلافة في قريش وفي آل علي حصراً، وهي دعوة ضمنية بالدعوة لنفسه في إقامة الخلافة ، وهو أمر لا تسمح الدولة العثمانية بالتلميح به فضلاً عن التصريح ، ومع ذلك تساهلت معه لما كان عليه من الصلاح والدعوة إلى وحدة الأمة ، والذب عنها أمام أعدائها . في مقابل ذلك كان محمد بن عبد الوهاب يحمل ضغينة عميقة للنبي العظيم ولأهل بيته (صلى الله عليه وعلى أهل بيته)،وبلغت تلك الضغينة وذلك الحقد بقتل كل من يصلي عليه على المآذن والمنابر. وكان يردد بعد أن قتل مؤذناً صلى على النبي(صلى الله عليه وعلى آله) بعد الأذان "الربابة في بيت الخاطئة ﴿الزانية﴾ اقل اثماً من الصلاة على محمد على المنابر" (٧٤) ، وقد استحضر في حركته فكر ابن تيمية وابن القيم الممجدين للحكم الأموي ، دون أن يكون لديه عمقاً فكريا يمكن أن يماهي به أفكارهما وأفكار من لف لفهما، لذا رأيناه

يختصر أو يجتزئ أفكارهما ويأخذ منهما ما يتوافق مع سريرته الفاسدة ويسلط اضطهاداً لاحد له ضد أتباع أهل البيت ، وعمد في خطوة غير مسبوقة من قبل في الإسلام إلى تهديم وإزالة شواهد قبورهم في المدينة المنورة وفي غيرها ، وصب جام حقده على قبر حمزة(رضي الله عنه) لأنه قتل اشياخ معاوية وأسلافه يوم بدر، كما هدم قبر السيدة فاطمة الزهراءوابنها الإمام الحسن(عليهما الرضوان) ، ولا ندري ما الذي منعه من إزالة قبر النبي(صلى الله عليه وعلى أهل بيته) وقبري صاحبيه ، أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؟. وهو لا يعتقد كما لا يعتقد أتباعه بقدسية قبر الرسول على وجه التحديد، فالقبر ومن فيه هما حجر في حجر فكيف يمكن لحجر جامد أن يشفع لإنسان حي ، ويستدل على ذلك أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس بن عبد المطلب ولم يستسق بقبر النبي(صلى الله عليه وعلى آله) وغير ذلك من الترهات(٧٥) . لذا لا يمكن أن يقرن سليل البيت النبوي الذي كان يدعو إلى التوسلبقبور الأولياء المرابطين والإقامة عندها إكراما للأولياءالمدفونين تحتها لأنهم بقية تلك الدوحة المطهرة ، بذلك الناصبي(٧٦) الجافي . فأمسى مثواه في الجغبوب مزاراً لطلاب البركة في شمال افريقيا فكان من أعظم القبور في برقة ممن سبقه ومن جاء بعده(٧٧). وقد اعرب عن ذلك الدكتور عبد الجليل الطاهر "**كما لم يكن الإخوان السنوسيون متعصبين ضد أولئك الذين يختلفون معهم ، ﴿فهم﴾ على العكس من الإخوان الوهابيين الذين دمروا القبور القريبة من قبر النبي (صلعم) . وأظهر الشيوخ السنوسيون احتمالاً طيباً لما يقوم به البدو الأتباع من احترام للأولياء المرابطين واضرحتهم ، الذين يجلبون لهم (البركة) أن البدو يعتقدون بأن للأسرة السنوسية نفس الفضيلة التي يتميز بها أولئك الأولياء**"(٧٨).

ويبدو أن الدكتور أحمد صدقي الدجاني ألصق الدعوة السنوسية بالحركة الوهابية إلصاقاً ،ولف على لفه من كتب عنها من بعده ، بدعوى أن السيد السنوسي كان أحد تلامذة الصوفي أحمد بن ادريس الشاذلي الفاسي، وهو من كبار الصوفيين ومن أتباع الطريقة الشاذلية المتفرعة عن الطريقة القادرية، فكان رئيساً للطريقة الخضيرية في ثلاثة وثلاثين عاماً ، وهو مؤسس الطريقة الادريسية الصوفية ، ولكنه لم يكن وهابياً ، كما لم يكن محمد بن عبد الوهاب صوفياً بل كان تكفيرياً ممخرقاً ، فكيف جمع بينهما الدجاني ؟ . وليس هناك دليل على أن دخول أحمد بن ادريس منطقة صبيا جعلته يتأثر بالفكر

الوهابي المعادي لأشراف مكة وللسلطة المركزية المتمثلة بالسلطة العثمانية (المستحكم) فيها . وبموته تفرق أتباعه بين السيد محمد بن علي السنوسي الذي وفق إلى إقامة زاوية صوفية على جبل ابي قبيس بأغلب أتباع الطريقة الادريسية ، فصارت إنموذجاً لكل الزوايا التي أقيمت فيما بعد في الجزيرة العربية وفي صحراء أفريقيا ، ولم يقل أحد عنها أنها زاوية وهابية ، ولو كان قريباً من الوهابيين كما ادعى الدكتور أحمد صدقي الدجاني لبنى زاويته في صبيا. أما الأقلية من أتباع طريقته فتبعوا السيد الميرغني الذي اسس الطريقة الميرغنية ، وهي أيضاً طريقة صوفية لا يمكن إلصاقها بالوهابية ، فإذا كانت الميرغنية طريقة صوفية لا يربطها رابط بالحركة الوهابية ، فمن المرجح أن الدعوة السنوسية هي دعوة صوفية أيضاَ لا يربطها رابط بالوهابية . بيد أن الوهابيين لا يؤمنون بالإسلام الصوفي بل كانوا معادين له أشد العداء. ولما تجول السيد السنوسي بين المغرب الأقصى والحجاز، كان منتمياً لأكثر من طريقة صوفية في ذات الوقت مثل التيجانية في المغرب والشاذلية والناصرية والقادرية ، ليلم بها ويجمع منها أفضل ما فيها عندما أزمع على البدء بدعوته الجديدة . ورافقه عدد من الرجال الصوفيين من المغرب والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة فأصبحوا فيما بعد من كبار قادة الدعوة ودعاتها ومعلميها ،ولم يكن أي منهم وهابياً، واشرنا إلى بعضهم في سياق البحث، وتبعوه على أنه الصوفي المبارك والقائد الفذ، وفي تقديري المتواضع ليس بمقدور السيد السنوسي أن يغير ولاءه من الصوفية إلى التكفيرية الناصبية المتزمتة .

ثم أن هذا الزعم لم يرد في مؤلفات السيد محمد علي السنوسي نفسه ولا في مؤلفات حفيده السيد أحمد الشريف ، كما لم يرد في مؤلفات من تخصص بالدعوة السنوسية ممن سبقوا الدكتور الدجاني مثل المستشرق والعالم الأنثربولوجي البريطاني إيفانس - بريتشاردE. E. Evans-Pritchard الذي تتبع خيوط الدعوة السنوسية على الأرض في كتابه المعنون **"السنوسيون في برقة" ، الذي كتب بإمعان ، "ظل زعماء الطريقة السنوسية متسامحين طوال الوقت تجاه طائفة الأولياء،على العكس من الوهابيين اللااقونيين الذين دمروا حتى أضرحة ذوي النبي نفسه . . . أن التشابه الذي كثيراً ما يعقد بين الحركة ﴿الدعوة﴾السنوسية والأخرى الوهابية على اساس التطهرية والتقيد بالحرفية، والتعصب الموجود في كليهما ، لهو رأي يحتاج إلى ما يؤيده. . . . غير أنه لا أهمية**

عظيمة لتلك الخصائص في الحركتين، كما أنه ليس هنالك أي سبب يدعو إلى الافتراض أن السنوسي الكبير قد تأثر تأثراً مباشراً﴿أو غير مباشر﴾ بالدعاوة ﴿الحركة﴾ الوهابية"(٧٩) . كما لم يرد ذلك عند الدكتور محمد فؤاد شكري المتحمس للدعوة في كتابه المعنون" السنوسية دين ودولة " إذ ذكر في معرض دفاعه عن الدعوة السنوسية "ولعل حركة الإصلاح الاجتماعي والديني الكبيرة التي قام بها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ،هي أقرب الحركات في معالمها الواسعة وأشدها شبهاً بالدعوة السنوسية" وهي ذاتها دعوة جمال الدين الأفغاني(٨٠) . كما لم يرد مثل ذلك الزعم في مؤلفات نيقولا زيادة عن ليبيا .

بيد أن الدليل الأبرز على أن الدعوة السنوسية لا تمت بصلة للحركة الوهابية من قريب أو بعيد سوى إنهما حركة ودعوة ولدتا في حيز جغرافي واحد بفارق زمني كبير وسارتا في طريقين متباعدين وتباين منهجي واسع وحسب ؛ وهو أن الحركة الوهابية موحى بها من وزارة المستعمرات البريطانية، بعلم محمد بن عبد الوهاب أودون علمه، من أجل ضرب الدولة العثمانية من الداخل(٨١) . في حين كان السيد السنوسي معادياً للدول الاستعمارية ، عداءً عصياً على التذليل ، وقد وطن نفسه ودعوته وأتباعه وخلفاءه على ذلك ، وباعتقادي أن احتلال فرنسا للجزائر وعدم إمكانية دخوله لبلده هزَ وجدانه هزاً عنيفاً ، لذا فإن السيد السنوسي وخلفاءه يرون مقاومة الاستعمار والدفاع عن دار الإسلام فرض عين على كل مسلم دون التفريق بين مكان وآخر (٨٢) فضلاً عن البون الشاسع في خلق وتعليم والمقدرة العلمية وقبول الناس لكل منها .ويمكن القول أن السيد السنوسي ابتدأ مالكيا وانتهى غير ذلك ، بدليل موقف الشيخ عليش الشديد العداء منه ومن دعوته ، ذلك العداء الذي لم ينته بخروج السيد السنوسي من مصر ووفاته فيما بعد ، وانما امتد إلى ابنه عبد الرحمن ، الذي ظل يكيد للدعوة السنوسية (٨٣) .

الزوايا أسس الدعوة السنوسية الاقتصادية والتعليمية والاجتماعية

لقد وجد السيد السنوسي عندما نقل نشاطه إلى برقة نظاماً اقتصادياً واجتماعياً بطرياركياً غير كفوء قوامه تحالف غير متكافئ بين قبائل المرابطين والسعادي، الذين

احتفظوا بالآبار والأراضي الخصبة ، غير متأثرين بالتشريعات العثمانية التي جاءت نتاج للتنظيمات الخيرية ، مستنداً إلى نمط زراعي رعوي غير ثابت في نواحي الجبل الأخضر والسهل الساحلي ، ونمط زراعي أكثر استقرارا في الواحات عماده زراعة النخيل وجني البلح ، وشبكة مواصلات تجارية واسعة ومعقدة تديرها قبائل صحراوية بعينها أهمها قبائل الزوية والمجابرة ، وفي قاع هذا النظام الاقتصادي الزراعي الرعوي التجاري القبلي ، أعداد كبيرة من العبيد دائمي النشاط والكدح من أجل اسيادهم في الزوايا وفي واحات جالو ـ أوجلة اجخرة مرادة الكفرة أو بمرافقة القوافل التجارية . ومن الملاحظ أن السيد السنوسي لم يعمد إلى تقويض هذا النظام وإقامة آخر يتناسب مع تعاليمه، وانما استوعبه وتكيف معه ، واستفاد منه اقتصاديا ً بعد أن نجح في استيعاب القبائل الدائرة له بتعاليمه واقامة أخويات رصينة منها قوامها الاخوان ومركزها الزوايا السنوسية (٨٤)، التي يمكن أن نعدها مؤسسات قبلية في المقام الأول، فلم تكن زاوية القصور مجرد زاوية في أرض قبيلة عابد، بل هي زاوية عابد، وزاوية المرج هي زاوية العرفا وزاوية شحات هي زاوية الحاسة وهكذا دواليك . وتداخل النظام القبلي بالدعوة السنوسية ، التي كانت سخية بتقديم التعاليم الدينية والاقتصادية والاجتماعية ، وقدمت القبائل الأراضي والثروة الحيوانية وجانباً من العامل البشري(٨٥) .

لقد كانت فكرة الزاوية موجودة في العالم الإسلامي قبل ظهور الدعوة السنوسية بزمن بعيد فهي المكان الذي يجتمع فيه الصوفيون ويتلون أذكارهم وأورادهم وصلواتهم الخاصة بهم . فقد رأى بدو برقة وحضرها كثيراً من أصحاب هذه الطرق ، وربما أصبح بعضهم أتباعاً لها، لاسيما تلك الطرق التي وجدت لها أتباعاً في أوساطهم مثل الطريقة المدنية المتحكمة بقبيلة الفواخر المرابطية والطريقة العروسية القليلة الانتشار والتأثير. إذ احتل شيخ الطريقة المركز الذي يدور حوله الأتباع ، هذا إذا وجد أتباعاً . ولم تتطور لتؤدي دوراً آخر إلا في عهد الأمام السنوسي ،الذي لم يكن مركز الدعوة ، بل كانت الزاوية كمؤسسة دينية اقتصادية سياسية هي المكان الملائم لهذه القطبية ، وعندما كانت الزاوية تبنى بوجود السيد السنوسي أو عدم وجوده تصبح هي مركز الدعوة ، أما السيد السنوسي أو خلفاؤه فكانوا يتجهون إلى أماكن أخرى ، فكانوا رموزاً لحركة تحرر وطني(٨٦) . فقد بنى زاوية الحجاز على جبل ابي قبيس وعاد إلى

برقة ، وأقام أتباعه الزاوية البيضاء ورحل هو إلى الحجاز ، وأقام زاوية العزيات ثم تركها إلى الجغبوب ، وترك زاوية الجغبوب لابنه وأتباعه عندما لفه الردى . وسار ابنه على نفس المنوال فترك الجغبوب إلى الكفرة ثم تركها إلى تشاد وهكذا. وفي كل هذه الأدوار كانت الزاوية تؤدي دوراً دعوياً تعليمياً تثقيفياً اقتصاديا اجتماعيا وعسكريا جهادياً وسياسياً في محيط المنطقة المقامة على أرضها .

فقد أسلفنا كثيراً أن أول زاوية بنيت من قبل السيد السنوسي الكبير كانت زاوية الحجازُ على جبل ابي قبيس والزاوية البيضاء بالقرب من ضريح الصحابي سيدي رافع الأنصاري ثم بنيت زاوية في العزيات على تخوم الصحراء ، وكان بناء زاوية الجغبوب حدثاً كبيراً في تاريخ الدعوة السنوسية ثم تكاثر بناء الزوايا تباعاً. فكانت كل زاوية من هذه الزوايا تعيش على مواردها الخاصة بها المتجمعة من الهبات والأعشار والزكوات الشرعية والتبرعات النقدية والحاجيات ومن كراء الجمال(لأغراض النقل) . أما وجوه الإنفاق فتجري بالشكل التالي؛ ولشيخ الزاوية كساء سنوي يتألف من عشر بدلات ، وتتكون البدلة من قميص وسروال وغطاء راس وحذاء، ويشترط أن لا يكون من الحرير أو الجوخ ، فضلاً عن احرامين صيفيين واحرامين شتويين(٨٧) وتتحمل الزاوية أيضاً نفقات المؤذن ومعلم الصبيان و العمال والخدم المكلفين بخدمة الزاوية الين لهم الحق بالكساء والعيش على نفقة الزاوية ، وسداد الطعام الكافي لعشرة أشخاص يومياً في موعدي الغداء والعشاء ، وذلك باسم الضيوف المحتمل مجيؤهم إلى الزاوية، وان نقص هذا العدد كان على شيخ الزاوية أن يكمل العدد من الفقراء ومجاوري الزاوية ، وإذ ما تجاوز العدد فعليه إحضار ما يكفي من الطعام في حينه ، وكان الطعام لا يتعدى صنفاً واحداً إلا في الحالات الخاصة ، وكان عليه أيضاً أن ينحر لضيوف الزاوية إذا اقتضى الأمر، ولا يحق له أن يضيف أقاربه على حساب الزاوية . كما تتحمل الزاوية نفقات زواج شيخ الزاوية لمرة واحدة ، والذي لا يتم إلا بموافقة زعيم الدعوة ، أما إذا رام الشيخ الزواج بأخرى فيتحمل نفقات الزواج من ماله الخاص(٨٨).

كما تتحمل الزوايا لاسيما زاوية الجغبوب نفقات عيش الطلبة الذين كانوا يتوافدون عليها من مختلف أنحاء شمال أفريقيا ومناطق جنوب الصحراء ، وهو عيش متقشف نزر يسير إذ لا تتعدى حصة الطالب رغيف خبر وبقليل من التمر واللبن الزبادي في وجبة

الفطور، ثم طبق من حساء العدس أو الفول مع فليل من الخبز في وجبتي الغداء والعشاء ، ولا يقدم اللحم إلا في ايام الجمع. ويصرف للطالب قميصان وطاقيتان وسروالان من القطن وجرد من الصوف مرتين في العام. وكانت النظافة مطلباً ضرورياً وهي من مستلزمات العبادة في الإسلام ، وعلى الطلبة أن يغسلوا ثيابهم كل اسبوع. وعلى العموم فهناك اشراف مركزي على هذه الزوايا ، فكانت كل من الزوايا المركزية الكبيرة تشرف على مجموعة أخرى من الزوايا القريبة منها . أما الزوايا الأكثر بعداً فتكون مستقلة تماماً(٨٩) .

تعد الأرض التي تبنى عليها الزاوية أرض مقدسة وتسمى حراماً والأمن مضموناً لكل طالب غوث أو حماية ولم يكن مسموحاً فيها اشهار السلاح أو اثارة المنازعات أو ما شابه ذلك . وفي كل الزوايا كانت زاوية الجغبوب إنموذجاً، وتتألف في العادة من مسجد ومدرسة قرآنية ومنزل خاص يعيش فيه الشيخ، وفيها أجنحة خاصة بنائب الشيخ والمعلم والضيوف، وفيها ايضاً وجناح للخدم ومستودعات لخزن التموينات وحوانيت تجارية وغرف خاصة بالفقراء من عابري السبيل ، ويبنى فيها اسطبل ومتجر وفرن وبئر أو خزان ماء وجبانة. وكانت المباني تشيد بالطين أو حجر الصوان أو بكليهما ، وتسقف عادة بالطين المدعم بالعوارض الخشبية(٩٠). وزاوية الجغبوب محصنة عسكرياً بسياج ضخم ، وفيها ورش لتصليح وصناعة بغض أجزاء السلاح مثل كل الزوايا الأخرى . وبالقرب من الزاوية كان الأغنياء يبنون منازل لهم تكتسب نفس الدرجة من القدسية التي كان عليها حرم الزوايا ، وفيها يخبئ الأغنياءالأشياء الثمينة أو الثقيلة ، وعادة ما كانوا من زعماء القبائل لاسيما أولئك الذين تقع تلك الزوايا في أراضيهم . أما المنازل فهي بحكم الوقف الملحق بالزاوية(٩١) .والحق يقال لقد كانت الزوايا السنوسية واحات أمن في بلد متوحش وسط قوم شرسين ، ومظهر من مظاهر الثبات في بلد كان كل شيء فيه متحرك (٩٢) .

ولم يغفل السيد السنوسي كما لم يغفل أتباعه من بناة الزوايا الجوانب العسكرية فيها وأنها فضلاً عن كونها مراكز للعبادة والدراسة والعمل الزراعي ، أنها مراكز عسكرية محصنة كانت تبنى في مكان مرتفع من الأرض يشرف على ما حوله يسهل تحصينه كما تسهل المراباة منه . وكل زاوية محصنة بسورين يعلوهما أبراج عسكرية

للمراقبة والدفاع . كما يوجد ضمن طاقم الزاوية برادو أسلحة لتصليح البنادقوكان الدفاع عن الزاوية وممتلكاتها وأرضها تكليفاً شرعياً على القاطنين في حدودها أو في المناطق القريبة منها " فالزاوية لكل واحد، وكل واحد للزاوية" وكانت قيادة المجاهدين من أبرز الأعمال التي تناط بشيخها (٩٣).

تعد الزاوية بمثابة أصغر وحدة بناء في المؤسسة الدينية الاقتصادية السياسية العسكرية للدعوة السنوسية ، ويرأسها مقدم الزاوية أو شيخها وهو عضو في المجلس العالي الذي يرأسه السيد السنوسي ، ويعد المرجع الأول في الزاوية ، فهو الذي يوجه الأهالي ويصدر الفتاوى ويلزمهم بحل مشاكلهم بها، ويحثهم على مزاولة الإنتاج الزراعي، وهو الذي يخطب في صلاة الجمعة والقيم على شؤون الزاوية ومتولي أمورها ومبلغ الأوامر الصادرة من السنوسيوالمكلف بإمامة المصلين في الصلاة والمسؤول عن تعليم الأطفال القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم . ويقع ضمن مهامه إبرام عقود النكاح والصلاة على الجنائز والحفاظ على القضايا الشرعية ، وله الحق في تعيين معلم للصبيان ومنادٍ للصلاة (مؤذن) ، وعدد من الخدم والعمال حسب مقتضيات الضرورة وله الحق أن يقتني مواشي خاصة به وله الحق في ممارسة الزراعة لحسابه الخاص ، ويستطيع من ذلك سد نفقاته الخاصة التي لا يحق له بأخذها من أموال الزاوية ، وكان له الحق أن ينحر لنفسه ولزوجته وأولاده منها شاتين أسبوعيا (٩٤) .

ويساعده عدة أشخاص معنيين ومختصين بأعمال الزاوية وهم بمثابة الأركان التي تقوم عليها ، فمنهم الوكيل وهو الساعد الأيمن لمقدم الزاوية، وهو معني بالأمور الاقتصادية بالكامل، وكان يطلق عليه " وكيل الدخل والخرج " ، وأغا الزكاة (٩٥) . وهناك الإمام الروحي الذي ينوب عن الشيخ بمزاولة المهام الروحية. ولكل زاوية مجلس استشاري يتألف من وكيل الزاوية وشيخ وأعيان القبيلة التي تقع الزاوية في أرضها ، والوجهاء المهاجرين إليها، ومهمة هذا المجلس ممارسة القضاء في فضاء الزاوية والنظر في مشاكل الناس وفض منازعاتهم، وله القدح المعلى في هذا المجال مع وجود رجال الدولة العثمانية الذين لم يلتفت إليهم أحد ، إلى الدرجة التي أثارت قائمقام جالو ـ أوجلة فدعا إلى " أن تفتح جالو فتحاً جديداً" (٩٦) .

وعلى الرغم من أن الزاوية كانت معروفة ضمن التنظيمات الإسلامية في المشرق والمغرب منذ قرون بعيدة، فقد كانت شبيهة بالأديرة في الديانة المسيحية ينقطع فيها الدراويش عن شؤون الدنيا للعبادة، ويقع على غيرهم اعاشتهم والكد عليهم بما يقرب من التسول ، ولم تأخذ زواياهم الدور الذي تبنته الزوايا السنوسية ،إذ أوجز السيد السنوسي الأهداف من بناء الزاوية وأجاد في رسالته إلى حاكم فزان التركي ، "والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة وتعمر فيه البلاد ويحصل فيها النفع لأهل الحاضرة والبادية ، لأنها ما اسست إلا لقراءة القرآن ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان "(٩٧). فكانت الزاوية السنوسية في الجغبوب على سبيل المثال واحدة من كبريات الجامعات الإسلامية التي يؤمها المسلمون لكي يتلقوا فيها انواع العلوم الروحية والدنيوية وفيها مكتبة ضخمة . والزاوية مركز اقتصادي تجاري زراعي، وهي ثكنة عسكرية في الوقت ذاته على وفق ما تقتضيه الأوضاع في المنطقة التي تقام فيها. وقد لامست هذا الموضوع من بعيد عند الكلام عن الجغبوب(٩٨) .

وعلى وفق ما تقتضيه الحاجة أيضاً يجري بناء الغرف والمرافق العامة داخل الزاوية ، لذا اختلفت الزوايا من حيث الحجم بحسب سعة المنطقة أو الإقليم المقامة عليه ، فهناك زوايا كبيرة مثل الزاوية البيضاء وزاوية العزيّات وزاوية دريانا، فلابد أن كل منها كانت ملاذاً لبضع مئات من الناس بما في ذلك النساء والأطفال . وبالتأكيد أن أهمية الزاوية لا تقاس بعدد النزل فيها ، بل بأهمية المنطقة التي تقع فيها من الناحية الاقتصادية والاستراتيجية .

ذكرت في مكان سابق أن الدعوة السنوسية اندمجت بالنظام القبلي في برقة فأحسنت استيعابه، وأُختار السنوسيون أماكن بناء الزوايا بعناية بحيث لا تبعد احداها عن الأخرى مسافة ست ساعات ولكن كان تصدع النظام القبلي بانشطار القبائل أو تحاسدها وتباغضها سبلاً أو مسارب أو مبررات لتعدد الزوايا دون مراعاة للضوابط السابقة،فكلما زاد تلاحم القبيلة كلما قل عدد الزوايا فيها ، كما أن تعدد الزوايا في القبيلة الواحدة بهذا الشكل جاء بتأثير عوامل أخرى مثل تبعثر أراضي القبيلة على مساحات متباعدة ، أو بسبب مراعاة المواقع الاستراتيجية مثل عقد طرق التجارة وعيون الماء والآبار، فبلغت في قبيلة الحاسة وعائلة فايد الصغيرة وعابد والعرفا وأولاد سليمان

والقبائل المنضوية معهم ، زاوية واحدة لكل منها . وبلغت زاويتين في قبيلة المغاربة وست في قبيلة العواقير وتسع في قبيلة الدرسة وأربع عشرة في قبيلة العبيدات وسبع عشرة في قبائل أولاد علي . فعندما يبلغ التحاسد مداه بين عائلتين أو عشيرتين في قبيلة واحدة أو قبيلتين فتطلب كل منهما بناء زاوية في الأرض التابعة لها. فيرسل أبناء احداهما مفوضا عنهم إلى زعيم الدعوة بأن يرسل معهم شيخاً يعلمهم العبادة ويعلم أبناءهم القراءة والكتابة ويفصل في منازعاتهم . عند ذلك يعمد الزعيم أن يبعث بأحد أتباعه مع مجموعة من الإخوان لبناء الزاوية الجديدة ، وقد يأمرهم ايضاً ببناء جناح خاص به عندما يزور الزاوية في مقبل الأيام بعد الانتهاء من بنائها وتمنح الزوايا أرضاً خصبة مفلوحة جيداً في الهضبة، وآبار ماء في السهول ،وبساتين نخيل وعيون في الواحات .أن زيادة عدد الزوايا السنوسية في النجوع والقرى والقصبات معناه تأصل استحكام الدعوة السنوسية في مصائر القبائل. وربما صفت النفوس في تلكما القبيلتين او العائلتين فيتوقف البناء في البناء الجديد ويعودان إلى الزاوية القديمة وهكذا. ففي قبيلة البراعصة أدى التنافس بين العائلتين الكبيرتين فيها وهما عائلة حدوث وعائلة جلغاف إلى تخطيط زاوية جديدة غير زاوية البيضاء في سلق الحمامة . وحدثت حالة مماثلة نتيجة التنافس بين عشيرة شماخ ورعيدات من قبيلة المغاربة ، وهناك أمثلة أخرى كثيرة (٩٩) .

بلغ عدد هذه الزوايا عند وفاة السيد السنوسي في جميع أنحاء(ليبيا) اثنتين وعشرين ، منها ثمان عشرة في إقليم برقة(١٠٠)،وهي كالآتي؛ في شحات ودرنة وعين مارة وام الرزم والعرقوب و توكرة ودريانة وطلميثة والطيلمون والفايدية والمخيلي والقصور والمرج ومسوس. وتعدى بناؤها إلى إقليمي طرابلس وفزان ، فبنيت في فزان ومزرق وزويلة وهون وسوكنة ومزدة الرجبان وتونين ومصراته وزليتن وزلة (١٠١)، أما في مدينتي بنغازي وطرابلس فقد تأخر فيهما بناء الزاوية إلى عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر. ومما هو جدير بالذكر أن مقدم زاوية بنغازي كان بمثابة سفير الدعوة السنوسية لدى حاكم برقة العثماني ، وهو في الوقت نفسه مستشار لدى هذا الحاكم في شؤون القبائل وهو الذي يتسقط الأخبار الخارجية وعن طريقه تصل الأخبار إلى الكفرة القصية ، لذا كان شيخ زاوية بنغازي ينتقى بدقة بحيث تتوفر فيه الميزات اللازمة لهذا الدور (١٠٢).بيد أن المثير للإعجاب هو كيف ربطت الدعوة هذه الزوايا

إلى مركزها في الجغبوب أوفي الكفرة ، لاسيما عندما توزعت على اصقاع متباعدة من اليمن والحجاز حتى تونس والجزائر والسودان الشرقي(السودان) والسودان الأوسط(تشاد) ، في شبكة من المخابرات والاستعلامات لتصل بأقصى سرعة إلى بنغازي، ثم إلى مركز الدعوة على ظهور الهجن(١٠٣) .

أورد محمد الطيب الأشهب رسالة من السيد السنوسي إلى شيخ المغاربة صالح الإطيوش أكد فيها على العمل الزراعي "قمنا ببناء الزاوية . . . لكي تزدهر الزراعة والاستقرار "(١٠٤) . لذا كان السيد السنوسي أو خلفاؤه أو شيوخ القبائل يختارون أخصب الأراضي وأكثرها ماءً وأجودها آباراً لكي تقام عليها الزوايا أو تلحق بها. لذا ما أن تقام الزاوية في مكان ما حتى يشرع في إعداد بستان أو مزرعة ملحقة بها يزرع فيها مختلف الأصناف مثل الفواكه والخضر والحبوب والبقوليات . وذكر الأمير شكيب أرسلان في وصف هذا الجانب من الزوايا السنوسية في الجبل الأخضر ،"**واغلب الزوايا يختار لها أجمل البقاع وأخصب الأرضين وفيها آبار لا تنزح من كثرة مائها ، وفي الجبل الأخضر بجانب عيون جارية وأنهر صافي ، وقل أن مررت بزاوية ليس لها بستان أو بساتين فيها من كل أنواع الفواكه والثمار"(١٠٥) .**

وبلغت الأراضي الملحقة ببعض الزوايا مساحة ٢,٥٠٠هكتار، بعضها صالح للزراعة ، والبعض الآخر صالح للرعي . وتجاوزت مساحة الأراضي المخصصة للزوايا في منطقة الجبل الأخضر تعادل ٥٠ ألف هكتار . وتجاوزت مساحات املاك السنوسية أكثر من ٢٠٠ألف هكتار، وكانت هذه الأراضي تعطى للزوايا على سبيل الوقف إلى الأبد، فمثلاً كانت زاوية الكفرة تملك ثلث بساتين الواحة (١٠٦). والقسم الآخر منها صارت تؤول إلى الزوايا نتيجة نزاعات الملكية بين القبائل ، وكحلّ يرضي جميع الأطراف المتنازعة تلحق الأراضي المتنازع عليها للزاوية الموجودة في ذلك الطرف. وتعمد بعض الزوايا إلى استصلاح الأراضي البور واصلاح آبارها أو شرائها. وكان بإمكان شيوخ الزوايا توزيع الأراضي الفائضة من ملكية الزوايا على الراغبين باستغلالها مع المعدات الضرورية للفلاحة ، على أن تبقى رقبتها ملك للزاوية ، فلا تباع أو تورث وعلى العموم تمتلك (الدولة) السنوسية جميع الأراضي الزراعية أو الرعوية(من الناحية النظرية على الأقل). مع وجود علاقات انتاج من أنماط أخرى ، هو أن الأثرياء بإمكانهم استغلال

أراضي الزوايا باستخدام أدوات العمل الزراعي(معدات الإنتاج) والخدم والعبيد والرحل القاطنين حول تلك الزوايا ، مقابل أجور وجعول تذهب لتلك الزوايا على شكل أعشار أو زكوات (١٠٧) .

ولأراضي الزاوية حدود خاصة تفصلها عن أراضي اقرب زاوية متاخمة لها أو ما يليها من أراضي القبائل، وهي حدود يلتزم بها شيوخ الزوايا ولا يجوز لهم تخطيها . ويجتمع شيوخ الزوايا كلهم أو بعضهم ، حيث ما رأوا لذلك مبرراً، وتحديد موعد الاجتماع ومكانه إن لم يكن أحد شيوخ الزوايا هو الراعي لعقد الاجتماع . وإذا التجأ شخص أو مجموعة من الأشخاص إلى احدى الزوايا لسبب ما، فعلى شيخ الزاوية والقائمين على شؤونها السعي إلى إزالة سبب لجوئهم إلى تلك الزاوية ، بموجب نصوص الشريعة ، وما كان متفقاً عليه من العرف والتقاليد المتبعة . وكان شيخ الزاوية يقدم في نهاية كل عام تقريراً مفصلاً إلى القائم بأمر الدعوة السنوسية عن جميع الأنشطة التي قام بها أو نفذها ومقترحاته أو ما ينوي القيام به . كما كان شيخ الزاوية يعمد بين الفينة والأخرى بزيارة المركز الرئيس للزاوية ليعز ارتباطه ويوثق انتماءه لمنظومة الدعوة السنوسية (١٠٨) .

اسهم التطور الزمني أثناء القرن التاسع عشر كما أسهمت الدعوة السنوسية في تأكيدها على العمل لاسيما العمل الزراعي وعدم الاتكال في جني الرزق، في بداية تلاشي نمط البداوة وميل هؤلاء البدو إلى الاستقرار بالقرب من التجمعات السكنية الكبيرة ، أو بالقرب من الزوايا التي فرضت عليهم بحكم هيمنتها الدينية أنماط من علاقات الإنتاج لم تكن مألوفة في مجتمع برقة البدوي ، وهو العمل التطوعي في اراضي الزاوية ، ليوم واحد أو أكثر في أوقات الحراثة والبذار والحصاد والدراسة أو نقل المحصول إلى المخازن(الشون)ـ جمع شونةـ ، أو نقل الفائض من الإنتاج ،لاسيما الحبوب على ظهور الإبل إلى الزاوية الكبرى (العاصمة) في الجغبوب أو الكفرة، عملاً يراد به وجه الله(عز وجل)، ولكنه في الوقت نفسه هو ذلك النمط الذي يقدم به القن الأوربي نفس الخدمة إلى البارون الإقطاعي . وكانشيخ الزاوية ومعه شيخ القبيلة(البارون البدوي) المقامة الزاوية على ارضه، يضرب خيامهم بالقرب من المنطقة أو الحقول المراد عملها حيث تجري أعمال الحراثة والبذار أو الحصاد من قبل البدو من

مرابطي الصدقة أو متوسطي الحال بمعداتهم ومواشيهم ، وبالتالي فلاحة أرض الزاوية بدون نفقة كبيرة ، فضلاً عما يقدمه هؤلاء من أعشار غلالهم وزكوات أنعامهم ومواشيهم وقطعان ضأنهم ، أو المعونات والهبات التي يقدمها هؤلاء لسد النقص الحاصل في ميزانية الزاوية من جراء الإنفاق على البنود المكلف بها شيخ الزاوية عندما يطالب بها هذا الأخير (١٠٩).

ولا يجوز في عرف الدعوة السنوسية تسديد نقص احدى الزوايا من فائض إنتاج زاوية أخرى وإنما يبعث الفائض إلى الزاوية الرئيسة(العاصمة)، وكأن المشرع السنوسي أراد بهذا أن يوجه شيوخ الزوايا ومستخدميهم إلى العمل لإقامة الأود ، وحث أبناء القبائل على تأدية ما بذمهم من أعشار وزكوات إلى الزوايا. ففي احدى الوثائق التي وجدها الايطاليون في زاوية توكرة التي يعود تاريخها إلى ١٣٠٧هجري(١٨٩٠م) تتعهد فيها عشائر البراغثة وهم طرش ودينال وشلماني أن يدفعوا زكوات قطعانهم وغلالهم إلى الزاوية المذكورة ، وأن يقدموا جمالاً لنقل الغلة إلى الجغبوب ، وأن يسهموا في أعمال الفلاحة والبناء دون أن يطلب منهم شيخ الزاوية ذلك . وكان من المفترض أن يتم ذلك بشكل طوعي ، ولكن رجال القبائل غالباً ما كانوا يعدون دون أن يفعلوا ، ففي هذه الحالة ذكرت بعض المصادر أن الزاوية تلزمهم بتوثيق مكتوب، أن يشترطوا على أنفسهم تأدية غرامة قدرها ضعف ما كان عليهم أداؤه في الحالة الاعتيادية ، ومن ينكل بهذا الشرط يتعرض للتعزير الجسدي أو لخسارة أرضه ، "والله أكبر من الجميع ،وسيثيب من أطاعه ، والسلام على من اتبع سواء السبيل " (١١٠) .

لقد نشرت الزوايا فضلاً عن الإيمان والأخلاق الكريمة والتقشف والعلم والتعليم ، الخصب والنماء أينما حلت ، فذكر هاملتون دوفرييه آنف الذكر بأن زاوية الفرافرة أُنشئت فوق أرض جرداء، تحولت إلى بستان . وبنفس الوتيرة هناك زوايا نشأت في بيئة فقيرة ولكنها تحولت سريعاً إلى مراكز للغنى ، وكانت زاوية مسوس تنتج بين ألفين إلى أربعة آلاف قنطار من القمح والشعير، وتمتلك أربعمائة جمل وستة آلاف رأس من الضأن والماعز ومائة راس من البقر، وهذا نتاج جهود مائتي رجل كانوا يعملون على أرضها (١١١) . واعتماداً على تقديرات الايطاليين في بداية احتلالهم لبرقة وطرابلس بين عامي ١٩١٣ و١٩١٩ لموارد عشرين زاوية من الزوايا السنوسية بـ١٥٠ ألف لير(١١٢) في

العام وعلى ضوء ذلك فأن التقدير الأولي لمجمل موارد كافة الزوايا في برقة ٤٠٠ألف لير سنوياً، أو ما يعادل عشرة آلاف باوند استرليني ، مع العلم أن الاقتصاد السنوسي ودع عصره الذهبي نتيجة الاحتلال الايطالي . وكانت زوايا العزيات ومسوس والقصور والطيلمون هي الأغنى بين الزوايا السنوسية باستثناء الجغبوب والكفرة اللتين قدرت ثروتاهما بأكثر ٢٠٠ألف لير، أي ما يعادل خمسة آلاف باوند استرليني بأسعار التحويل لعام ١٩١٩(١١٣) .

استفادت الدعوة السنوسية من المؤسسات والبيوت التجارية الموجودة في برقة لاسيما في بنغازي إذ وجهت بعض الزوايا طلبيات استيراد من تلك البيوت مقابل مبيعات (على قاعدة التصريف). أما الواحات فكانت محطات للقوافل التجارية قبل انتشار الزوايا فيها ،وقدم الاستقرار وعياً دينياً أكبر من تلك المناطق المرتبطة بالنظام القبلي لذا تفرغ العاملون في الزوايا لممارسة العمل التجاري ،مقارنة بجهود هؤلاء الكبيرة في توحيد مناطق القبائل وفض منازعاتهم قبل التوجه إلى الاستثمار في الحركة التجارية التي كانت موجودة، وجمع الزكاة من فائض النشاط التجاري، فطرحت الدعوة نفسها كمحكمة في النزاعات التجارية بين القبائل . وكانت التجارة بعض أسباب تنقل الدعاة السنوسيين في زواياهم الرئيسة من زاوية البيضاء إلى الجغبوب ثم إلى الكفرة ثم إلى قرو، أن هذه المناطق كانت مراكز ومحطات هامة لتجارة القوافل الصحراوية قبل انتقال السنوسيين إليها واتخاذها عواصم لدعوتهم ، للاستفادة من الفوائض التجارية ، وصارت تجارة القوافل مصدراً اساسياً لدخل (الدولة) السنوسية بعد عام ١٨٧٠، بعد تحولت القبيلتان التجاريتان في برقة وهما ؛ الزوية التي كانت تتحكم بالتجارة عبر الكفرة ، والمجابرة التي كانت تتحكم بالحركة التجارية عبر واحات جالو- أوجلة سيوة وصحراء مصر الغربية أو بنغازي ومدن ساحل البحر المتوسط ، تحولتا إلى قبيلتين سنوسيتين بالكامل(١١٤) .

وأصبحت الزوايا على طرق القوافل تتحول بالتدريج إلى مراكز تجارية فأقيمت على أراضيها المستودعات والخانات والمهاجع لإقامة مرافقي القوافل ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت الطريق التجارية الصحراوية التي تربط بين بغازي ووداي تفوق سائر الطرق التجارية الأخرى حيوية ونشاطاً، نتيجة إلى بعدها عن أعين القناصل

الأجانب ووكلائهم ومنافساتهم، واستقلاليتها عن الصراعات القبلية في بورنو من الغرب ودار فور شرقاً ، وغموضها بكونها مكتشفة حديثاً، وإغلاق درب الأربعين من قبل الحركة المهدية في السودان . ومنذ العام ١٨٦٠بات مصير هذه الطريق مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بمصير الدعوة السنوسية التي كانت سبباً في ازدهار حركة النقل عليها ،لأن منظمة واحدة مزودة باطار قانوني (شرعي) واقتصادي واجتماعي ، تعهدت بالرعاية وشؤون الأمن على الطريق من أولها إلى آخرها ، واضطلعت الزوايا السنوسية التي توزعت على طرق القوافل بحل النزاعات بين الأسر والجماعات العرقية أو الإثنية، فمثلاً قربت بين قبيلة الزوية والتبو. ونستدل على ذلك بما كتبه السيد السنوسي الكبير في رسالته إلى قبيلة التبو" **جاءنا بعض شيوخ قبيلة الزوية وسألونا الصفح والعفو وبناء زاوية في تازربو ، ونحن نرغب أن نكون جيرانكم لنعلمكم كتاب الله ، ونرغب في مصالحتكم مع العرب ﴿ قبيلة الزوية﴾ الذين يهاجمونكم ويسلبون أموالكم وأطفالكم بالرجوع إلى القرآن الذي يتطلب التصالح بين المسلمين**"[١١٥] ، فألجمت الزوايا بذلك قطاع الطرق ووفقت إلى استعادة البضائع المنهوبة أثناء الغارات على القوافل . فكفلت بذلك دخلاً مجزياً من الهدايا ورسوم العبور وأجور التخزين ، وأضفت طابع الوحدة على الأراضي السنوسية المترامية الأطراف(١١٦).

وأشارت المعطيات التجارية أن عدد الجمال التي تخرج من بنغازي إلى واداي عبر جالو والكفرة ، تتجاوز الألف جمل سنوياً (١١٧) ، وقدرها دي كاندول بين مائتين وثلاثمائة اسبوعياُ في المدة بين ١٨٦٠ و ١٩٠٥وهي العصر الذهبي لتجارة الكفرة عندما كانت طرق القوافل العشرة تخرج منها إلى مختلف الأصقاع ، محملة بمختلف البضائع والسلع مثل الأقمشة والسكر والشاي والمرايا وبضائع الرفاهية والسلاح الذي ازدهرت تجارته في الثمانينيات ، لاسيما بنادق الوينشستر ذات الثمان عشرة اطلاقة السريعة الإطلاق لحراسة طرق القوافل ، فضلاً عن بندقية ريمنغتون ذات الإطلاقة الواحدة الواسعة الانتشار ، وسوى ذلك ، وتعود محملة ببضائع أفريقيا مثل ريش النعام وعاج الفيل وجلود الحيوانات الأليفة وغير الأليفة والرقيق(١١٨) . وأسهمت في التحول من التبادل السلعي ـ السلعي (المقايضة) التي كانت تتحكم في النشاط التجاري في الحقب السابقة ، لاسيما في التبادل التجاري بين أفريقيا جنوب الصحراء ومدن ساحل المتوسط

إلى سيادة التبادل السلعي النقدي وانتفاء الحاجة للنظام القديم، وبناء عليه ظهرت طبقة تجارية كمبرادورية موسرة جداً بين الأتباع السنوسيين لاسيما بين المجابرة ، فقد ذكر المؤرخ الفرنسي مياغ J.L. Mie'ge أن بعض التجار السنوسيين وصلت أرباحهم في تجارة القوافل إلى ٦٠٠٪(١١٩).لذا كانت هذه الفئة بحاجة ماسة للدعوة السنوسية بإضفاء صفة الشرعية على نشاطها والدفاع عن مصالحها وفرض استتباب الأمن على الطرق التجارية ، كما كانت الدعوة السنوسية بحاجة أكثر مساساً لأعشارها وأعطياتها وزكواتها (١٢٠) .

ومما يذكر أن السيد محمد الشريف الذي قابل السيد السنوسي في الحجاز وأُعجب بدعوته ، ولما أصبح سلطانا على سلطنة واداي في عام١٨٣٨تحول هذا الإعجاب إلى ولاء وتحالف مع الدعوة السنوسية حتى نهاية دولة وادي في عام ١٩٠٩، فأورث الولاء علاقات تجارية متطورة بين واداي ومدن برقة على البحر المتوسط مثل بنغازي ودرنة مروراً بالمراكز السنوسية ، فكان ازدهار تجارة الصحراء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يعود في بعض أسبابه إلى تلك العلاقات الطيبة (١٢١). وكان السيد السنوسي يتلقى ٥٠ عبداً في كل عام هدية من سلطان وادي ؛ كانوا يستخدمون في أعمال الزاوية الرئيسة أو الزوايا الأخرى . وذكر محمد بن عثمان الحشائشي ، في "جلائه" أن رئيس الدعوة السنوسية امتلك مائتي عبد لخدمته وخدمة ضيوفه في الزاوية الرئيسة(١٢٢) .

وفي الوقت الذي يقبل فيه السيد السنوسي هدايا بشرية من مريديه أو المعجبين بدعوته ، كان بدوره يقدم هدايا بشرية لبعض الشخصيات مقابل الخدمات المقدمة من هؤلاء . فمثلا أرسل السيد أحمد الشريف السنوسي في عام ١٩٠٦جارية سوداء إلى عبد الله الكحال التاجر السوداني السوري الأصل المقيم في القاهرة ، والذي قام بدور وكيل تجاري للسيد السنوسي المقيم في الجغبوب ، وذكر حفيد الكحال أن جده استلم من السنوسي أربعة عبيد دفعة واحدة(١٢٣).وذكر أنور باشا فيما يتعلق ببرقة من مذكراته أحداث يوم الرابع من تشرين الأول(اكتوبر)١٩١٢أنه استلم جاريتين سوداوين أُهديتا إليه من السيد أحمد الشريف السنوسي "يا إلهي ماذا سأفعل بهاتين الجاريتين السوداوين"(١٢٤)، واذا كان المرء يجهل لماذا قدم الشيخ السنوسي هداياه لعبد الله

الكحال، فإنه لا يجهل مغزى تقديم هذه الهدية إلى البطل العثماني في غمرة وقوفه المشرف أمام العدوان الإيطالي على طرابلس وبرقة .

وعلى الرغم من المرامي النبيلة جداً التي هدف إليها السيد السنوسي من وراء شراء الرقيق ، بتحريرهم وتلقينهم أسس الإسلام وإطلاقهم إلى بلدانهم الأصلية لنشر هذا الدين هناك ، إلا أن التجار السنوسيين لم يترفعوا عن تجارة الرقيق المقيتة وإنما انغمسوا فيها حتى آذانهم ، فكان المجابرة وهي تجمع قبائل تجابر على تجارة الرق ، ولا أعتقد أنهم اقلعوا عن هذه التجارة البائسة بعد أن أصبحوا من عماد الدعوة السنوسية في الصحراء الكبرى ، بل أن بعضهم ظل يتاجر بها بعد ذلك (١٢٥) . ولكن أنه من المؤكد أن الزوايا السنوسية لاسيما الزاوية الرئيسة تأخذ ريعها من جهد العبيد الذين يقون مشدودين إلى الزاوية في فلاحة الأرض أو رعي الحيوانات ، دون أن يتمكن أحد بيعهم أو إهدائهم أو تحريرهم ، فهم مرتبطون بالأرض في المقام الأول، واذا حدث أن تمكن عبد من الهرب فإنه يعاد إلى الزاوية من قبل (الأغيار) (١٢٦). بيد أن العائد الرئيس الذي تحصل عليه الزاوية لاسيما الزاوية الرئيسة متأتي من أرباح المتاجرة بهم فضلاً عن البنود الأخرى في تجارة القوافل.

لقد ذكرت في الصفحات الفارطة أن الأراضي التي كانت تقام عليها الزوايا هي اراضي وقفية أو حبوس غير قابلة للامتلاك من أي جهة بما ذلك الدعوة السنوسية . وعلى ذلك فأن شيوخ الزوايا يتنقلون بين الزوايا على وفق ما تقتضيه المصلحة العامة ، وما يوجه به صاحب الدعوة السنوسية ، وبعضهم تجده اليوم شيخ الزاوية الفلانية ، فما أن أنجز عمله حتى تراه في الغد شيخاً لزاوية أخرى أو لزاوية ثالثة ، ومشيخته ليست وراثية ، فعلى سبيل المثال كان الشيخ حسين الغرياني من الرعيل الأول وتولى رئاسة زاوية البيضاء ثم زاوية جنزور في الدفنة . ومثله الشيخ عمر محمد الأشهب من زليطن ، وهو من الرعيل الأول أيضاً تولى رئاسة زاوية درنة ، ثم رئاسة زاوية مارة ثم مشيخة زاوية مسوس. وهكذا كان بقية الإخوان لاسيما الحلقة الضيقة حول السيد محمد على السنوسي، ويبدو أنهم لم يهتموا كثيراً بالملكية الخاصة طالما هيأت لهم ممتلكات الزوايا عيشاً كريماً، وانصرفوا انصرافاً تاماً للأعمال الدعوية (١٢٧) .

ولكن فيما بعد ربما في الجيل الثاني من الإخوان تجد أحدهم لا يبرح الزاوية التي كانت بعهدته حتى وفاته ، ثم يصار إلى تسمية خلفه من بين أقاربه كأن يكون ابنه أو أخوه ، بموافقة شيوخ القبيلة التي تقع الزاوية في حدود حياضها ، وموافقة شيوخ الزوايا المجاورة . وما على زعيم الدعوة إلا تلبية الطلب . وعبر أحد البدو عن ذلك " أن شيخ زاويتنا يجب أن يكون رجلاً تميل إليه قلوب الناس" . وبمرور الوقت أصبح ينظر إلى مركز شيخ الزاوية كحق وراثي ضمن أسرة معينة ، وأصبحت الجهود منصبة على اختيار مرشح محدد ينال المقبولية بين عدة مرشحين في الأسرة الواحدة ، إلى الدرجة التي جعلت محمد بن يحيى بن السنوسي بن عمر الأشهب يحظى بموافقة السيد أحمد الشريف على أن يخلف والده في مشيخة زاوية مسوس وهو لما يزل في السادسة عشرة من عمره . بل أن بعض الأسر حصلت على أشبه ما يكون بالحق الوراثي في الإشراف على زوايا متعددة . وسارت على هذا النهج أسر فركاش والغماري والخطابي والأشهب . وبهذه الطريقة أصبحت أسرة الدردافي تمتلك زاوية شحات وأسرة الاسماعيلي تمتلك زاوية الفايدية ، وأسرة عمور زاوية قفنطة . واستمرت الحالة التي أدت إلى استشراء النزاعات بين الأسرة الواحدة ، كل يرى أنه الأجدر بتولي مشيخة الزاوية(١٢٨) .

فكلما ازدادت القبيلة التي تقع في حياضها الزاوية عدداً وبأساً وصلابة وتماسك وانكفاء إلى الداخل ، كلما تحتم انتقال مشيخة الزاوية وراثيا كما هي الحال في الزاوية البيضاء التي تقع في قبيلة البراعصة ، وزاوية مسوس في أرض عائلة سديدي قبيلة العواقير وزاوية ترت في أرض عائلة غيث من قبيلة العبيدات . ويبدو أن هذا الشكل من التوريث لم يحصل في زوايا المناطق الحضرية مثل بنغازي ودرنة ، أو في القرى ذات الأنماط البشرية المقاربة .ومما لاشك فيه أن التمسك بالزوايا من قبل أسر وعوائل بعينها أدى بها إلى التجذر والعيش بطابع طفيلي على موارد الزاوية ،وأصبح لها حقوقاً وعلاقات إقطاعية بطرياركية لم تكن معروفة في برقة من قبل . وصار منح البركة من قبل المرابط حقاً وراثياً وصار من حقه ان يصبح مثواه مزاراً لأبناء القبيلة المحيطة به حقاً وراثياً ايضاً مما جعل المنافسة تشتد بين أبناء الأسرة الواحدة(١٢٩) .

لقد كان السيد السنوسي الكبير وولداه يعيشون على فائض الزوايا من الغلات الزراعية أو التمور المنتجة من ممتلكات الزاوية الرئيسة في الجغبوب أو الكفرة أو ما يزرع فيها من محاصيل أو من ريع العمليات التجارية آنفة الذكر ، ولا توجد ممتلكات خاصة بهم ، وكما ذكرت أنه المالك الشرعي لكل ممتلكات الزوايا(من الناحية النظرية) . وكان يعيش بمستوى واحد مع الإخوان كبارهم وصغارهم وكل العاملين في الزاوية . ولكن هذا الوضع تغير كثيراً بازدياد أعداد الزوايا وضخامة مواردها وعدم وجود سلطة مركزية يمكنها من إدارة هذ الامبراطورية الكبيرة واستيعاب أموالها ، لذلك رغبت العائلة السنوسية من أحفاد السيد السنوسي الكبير بتقسيم هذه الأموال بينها والعيش كفئة مترفة على حساب جهود الإخوان ومن ورائهم من خدم وعبيد وعمال السخرة في الفلاحة والبناء . فجرى تقسيم الثروات بين هؤلاء على أساس انتماء الأم . فحصل السيد محمد العابد وأخوه السيد علي الخطاب وهما أولاد محمد الشريف على حق استيفاء ريع برقة البيضاء وفزان حيث أخوالهما عائلة الأشهب شيوخ متنفذين في تلك الجهات . وحصل صفي الدين بن محمد الشريف أيضاً على ريع برقة الحمراء حيث أخواله عائلة المحجوب . وحصل محمد هلال بن محمد الشريف على حق استيفاء حصته من البطنان(مارماريكا) لأن أخواله متنفذون فيها . وحصل محمد ادريس وأخوه محمد الرضا على ريع تلة برقة حيث لهم خؤولة مع عائلة الغماري وبوسيف . أما السيد أحمد الشريف فحصل على ريع إقليم طرابلس لأن أخواله من قبيلة الفواتير القوية التي كانت تقطن في زليطن(١٣٠) . وذهبت تلك النزعة البسيطة البعيدة كل البعد عن الترف والبذخ الأميري ، تلك النزعة المتأثرة إلى حد بعيد بشظف عيش البدوي التي تحولت في زمن السنوسي الكبير إلى منهج حياة لكل الإخوان في الزوايا السنوسية.

الإخوان السنوسيون

حمل المسلمون المغاربة حنيناً دفيناً وشعوراً متأصلاً إلى الشرق وقدسيته عبر مئات السنين ففيه مكة المكرمة والمدينة المنورة ،والحج إليهما فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وفي الشرق بغداد الحضارة ودمشق التاريخ والقدس القدسية والقاهرة العلم والتشريع . لذا كان المغرب الإسلامي يدفع بأبنائه إلى الشرق بشكل متواصل. وكانت مدينة

طرابلس وإقليم برقة ممراً لهؤلاء جيئة وذهاباً، وكثير منهم رأى أفضلية الثواء في هذه الجهات بين مغرب العالم الإسلامي ومشرقه، فأثروا في البدو بحماسهم الديني وطاقاتهم العقلية وزهدهم وتقشفهم واتقانهم القراءة والكتابة ولهجتهم التصالحية فتقبلوهم على أنهم رجال ذوي قداسة يسعون إلى الخير والإصلاح بين القبائل(١٣١) ، فأمسوا جذوراً لحمائل وقبائل حملت أسماءهم في مقابل قبائل السعادي المشرقية ، وأصبحت مثاويهم أضرحة مقدسة ومزارات تطلب عندها البركة والشفاعة وتقضى عندها الحاجات لصاحب حاجة فمنهم من يطلب الشفاء لمريض ومنهم من يطلب حملاً لعاقر، لاسيما تلك المثاوي التي ادعى أصحابها انتمائهم إلى النسب النبوي . فنسمع عن سيدي فلان وسيدي هذا وسيدي ذاك ، وتجمع حولهم كل طالب أمن ،لاسيما من أحفادهم مثل سيدي سليمان الطير وسيدي محيوس وسيدي مشيط (مشيطط) وسيدي الشيخ وسيدي خريبيش وسيدي بن غازي .

لذا عندما وفد السيد محمد بن علي السنوسي من الغرب أيضاً وجد أمامه بيئة مرابطين خصبة فتقبلته بقبول حسن ، فكان هؤلاء وأبناؤهم وأحفادهم خير عون في تنفيذ مهمته وتقبلته برقة على أنه مرابط يقوم بما قام به المرابطون الذين سبقوه. وقد سبقه اثنان أحدهما في غرب برقة وهو أحمد بن عبد الله السكوري الذي وصل تأخراً من الغرب ، وأصبح احفاده شيوخ زاوية المرج ، والآخر في الشرق وهو سيدي المرتضى فركاش الذي ينتمي إلى عائلة مرابطين قديمة في برقة ، فأصبح احفاده شيوخ في زوايا أم الرزم وبشارة ومرتوبة . وقد أفاد السيد السنوسي من جهود هذين المرابطين . بيد أن أغلب مساعدي السيد السنوسي كانوا من الذين تبعوه من الغرب لاسيما من الجزائر مثل عائلة الخطابي من الفرع الذي ينتمي إليه (١٣٢) .

لقد صحب السيد السنوسي اثناء تجواله بين المغرب الأقصى والحجاز زمرة من الأتباع ممن اتصف بعمق التفكير فتبعوه طائعين واصبحوا اعمدة الدعوة السنوسية ، وأصبح بعضهم من كبار العلماء الذين وقع على كواهلهم التدريس في جامعة الجغبوب السنوسية فمنهم من الحجاز كالشيخ فالح الظاهري ومحمد بن الصادق الطائفي ، ومنهم من الجزائر كأبي القاسم التواتي ، والشيخ محمد بن عبد التواتي ، ومنهم من تونس مثل علي بن عبد المولى ، ومنهم من السودان مثل عبد السني ومحمد بن الشفيع ، ومنهم من

طرابلس كعمران بن بركة الفيتوري، ومنهم من وجده في برقة كعبد الرحيم المحبوب والشاعر أبوسيف مقرب حدوث البرعصي ،وحسين الموهوب الدرسي ، فضلاً عن أحمد عبد القادر الريفي وفالح الظاهري وأحمد الطائفي ومحمد مصطفى المدني ومحمد القسطيني ومحمد حسن البكري(١٣٣). فكانوا من مختلف الأقطار لا يربهم رابط ولم تحصل بينهم معرفة مسبقة سوى عقيدتهم الإسلامية وعلاقتهم بالسيد السنوسي فكون منهم كتلة متماسكة عزيزة قوية فأصبحوا كالجسد الواحد ، لاهم لهم سوى خدمة الإسلام ورفعته .

أن أغلب هؤلاء تتلمذوا على يد السيد السنوسي الكبير فكانوا الحلقة الداخلية أو الخاصة التي تحيط به فتسلموا إجازتهم(شهاداتهم) منه وأخلصوا لدعوته واصبحوا جميعاً دونما استثناء مقدمي زوايا من الحجاز إلى فزان وبلاد التبو فتركوا بصماتهم الواضحة في هذا البناء العظيم ، فكانوا الفقهاء والمعلمين والسفراء والكادحين في الفلاحة فعملوا كهيئة دينية مهمتها الإشراف على عمل الزوايا، وتحولت بمرور الزمن إلى هيئة سياسية بالتدريج فواكبت تحول الدعوة السنوسية من دعوة دينية كانت تؤكد على العبادات كوسيلة لإصلاح الشخصية الإسلامية ، إلى دولة واسعة الأرجاء عند خلفاء السنوسي الكبير . فمثلاً كان عبد الرحيم المحبوب من بنغازي مربياً لمحمد المهدي السنوسي ومفتشاً على الزوايا السنوسية ومفاوضاً عن السنوسي الكبير للسلطان العثماني عبد المجيد الأول في عام ١٨٥٦ ومتولي زاوية بنغازي بعد إقامتها في عام ١٨٧٠. ولم يكن فالح الظاهري أقل منه فقد زار اسطنبول والهند وجلس للتدريس في كل مكان حل فيه " ولكني والحمد لله حصلت من تبليغ العلم إلى أهله غاية الأرب ، ولم يبق قطر إلا وحمل عني إليه دفتر شيخنا الأستاذ ، وهذا أقصى أمنيتي عندما جعلت في الخافقين لشيخنا المذكور أعلى صيت حتى في الهند والسند"(١٣٤) .

وهناك أسر انتمت بكاملها إلى الدعوة السنوسية وأصبحت من ركائز هذه الدعوة مثل آل المحجوب وآل الأشهب وآل الدردني وآل عمران بن بركة وآل يوسف وآل بن فرج الله وآل المقرحي وآل الثني وآل الغرياني وآل العيساوي وآل الغزالي وآل الهوني وآل الزناتي(١٣٥). وكان لأهل برقة دور كبير في الدعوة السنوسية بدوهم وحضرهم ،منهم على سبيل المثال لا الحصر فضلاً عن أحمد المحبوب ،ابو سيف مقرب

البرعصي آنف الذكر وعمر جلغاف البرعصي والفضيل أبو خريص الكزة العاقوري والأمين شتيوي ومحمد بك كاهيه وعبد الله بن شتوان وجميع عائلة منينة وعلي بك الإطيوش المغيربي والشيخ حمد اللواطي العاقوري وأبوبكر بوحدوث البرعصي وعبد الله سويحل المريمي العبيدي واضرابهم من الشيوخ والأعيان وأحلاس الخيل وطراق الليل ممن انصهروا في بوتقة السنوسية وحملوا تعاليمها(١٣٦) .

كما أدت السياسة التعليمية للدعوة السنوسية في بعض جوانبها إلى إعداد الإخوان فضلاً عن تخريج المتعلمين في مختلف الجهات وفي هذه الحالة "المؤمن المتعلم خير من المؤمن الجاهل" وان الإسلام الحقيقي يدعوا إلى العلم . ففي سن الخامسة عشرة كان الطالب يقبل في مدرسة الجغبوب ، وبعد قضاء خمسة أعوام في تلقي العلم فيها ، يعود إلى نفس الجهة التي جاء منها ، لكي يمارس التعليم المماثل في المدارس المحلية أو الإسهام في فتح مدارس جديدة .وقسم من هؤلاء الخريجين ينضموا إلى مجموعة الإخوان أصبحوا مخلصين متفانين في سبيل نشر الدعوة السنوسية ، فأوصلوها إلى دار فور والتبستي وبوركو ووداي وكانم وبرنو وباقرمي وكانوا وزندر في نايجريا ، ووصلت بجهودهم الدعوة إلى السنغال على شواطئ المحيط الأطلسي . ففي عام ١٨٧٩ وصل لفيف من الحجاج السنغاليين لزيارة السيد المهدي في الجغبوب وهم في طريقهم إلى الديار المقدسة ، ولكنهم بعد قطع مسافة ثلاثة آلاف ميل ،اكتفوا بزيارته وقفلوا راجعين إلى بلدانهم(١٣٧) .

ومن أجلّ أعمال السيد السنوسي الكبير الذي لم يسبقه إليه أحد على الإطلاق ، الذي أثبت حصافة رأيه وقدرته التنظيمية والدعوية المتميزة، هي شراؤه لقافلة من الرقيق الأفريقي كانت في طريقها من وداي إلى احدى مدن الساحل عبر الجغبوب فاعتق أفرادها وعلمهم اللغة العربية والقراءة والكتابة وغرس في صدورهم الإسلام فحولهم إلى دعاة وبعث بهم إلى وداي ليكونوا دعاة لدعوته، (١٣٨) .واشرت إلى ذلك في الصفحات الفارطة .

الخاتمة

أصبح واضحاً مما تقدم أن الدعوة السنوسية هي دعوة سلمية تجديدية معادية إلى العنف ، و حتمتها عوامل ذاتية وموضوعية في الأقاليم التي انتشرت فيها ، لاسيما إقليم

برقة ، وتطورت بتطور وعي مؤسسها ، من محاولات فكرية خجولة ناتجة عن الاستياء الناجم عن التدهور الذي كانت عليه الأنظمة السياسية الإسلامية ، إلى دعوة إسلامية تربوية تصحيحية واضحة المعالم دعا فيها مؤسسها إلى فتح باب الاجتهاد من أجل العودة بالدين إلى منبعه الصافي ، والدعوة من وراء ذلك إلى إصلاح النظام السياسي للدولة الإسلامية ، من أجل جعله مهيأً لمقاومة الاستعمار الغربي الذي أصبح نشطاً في البحث عن المستعمرات تحت واجهات مختلفة ، وقصور النظم السياسية عن مقاومته ، لاسيما الدولة العثمانية ممثلة الإسلام الرسمي ، فاحتلت الجزائر وطن السيد محمد بن علي السنوسي .

دعا السيد السنوسي إلى إقامة نظام سياسي يترأسه العلماء من أهل البيت للدلالة على نفسه بكونه حسنياً ، ولكنه في نفس الوقت لم يكن حيادياً بين الدولة العثمانية وأعدائها ، بل عمل طيل حياته على نصرتها بكونها ممثلة للإسلام دون أن يخفي مبرراته بانتقادها . ونظرت الدولة العثمانية إليه بتسامح على مضض ، ولم تبخل عليه بالدعم على وفق إمكانياتها المتواضعة ، مما شجعه كثيراً على وضع الأسس لبناء دولة ثيوقراطية سياسية قائمة على أسس اقتصادية دينية اجتماعية قوامها شبكة واسعة من الزوايا التي امتدت في حياته على أديم إقليم برقة وفي خارجه في أقاليم انعدام السلطة، وأظهر السيد السنوسي ومن جاء بعده براعة في إدارة هذه الشبكة الواسعة من الزوايا بمساعدة الإخوان الذين كانوا صنفاً متميزاً من الرجال الشجعان ، من الذين طبعهم السيد السنوسي بطابعه الهادئ العلمي الرفيع فأصبحوا أهم نتاج الدعوة السنوسية في جوانبها الاجتماعية، وأدوا أدوارهم في قيادة الدعوة وديمومة زخمها بعد وفاته .

ABSTRACT

This research had deal around Sanusian Organization and its appearance factors, because it was reformative Islamic movement, had attached firmly with the life of its establisher Mohammed Bin Ali Al-Sanusi , his lineage , his juristic learning, and his jihad or struggle for establish his movement, and the reasons which was attached it with Cyrenaica . The researcher had taken up in his research to more important principles of this movement and its relations with another movements and Islamic faiths, particularly Wahhabi Movement , and had taken up in his research also Al-Zawaya (small mosques)of

Sanusian Order system , as it was construction units Sanusian Social from All sides , economically, socially , religiously ,and politically .the researcher had deal also to a Sanusian brothers(Al-Ekhwan) ,them origins , the ranks in the order , and the role which were carried for consolidation the Sanusian organization, spread its ideas , and defeat away from its principles .

هوامش البحث

(١) ن. أ. بروشين ، تاريخ ليبيا في العصر الحديث ،منتصف القرن السادس عشر ـ مطلع القرن العشرين ، ترجمة عماد حاتم ، (طرابلس ، ١٩٩١)، ص ٣٢٠؛ محمد فؤاد شكري ، السنوسية دين ودولة ،(القاهرة ، ١٩٤٧)، ص٩ .

(٢) نقلاً عن علي محمد الصلابي ، الحركة السنوسية في أفريقيا ، (بيروت ، ٢٠٠٦)، ص١٧ ؛ محمد بن علي السنوسي ، إيقاظ الوسنان في العمل بالقرآن (مانشستر ،١٩٩٠)، ص١٥-١٩ .

(٣) أنظر علي عبد اللطيف حميدة ، المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا ، (بيروت، ١٩٩٥) ،ص١٢٤ .

(٤) نقلاً عن محمد فؤاد شكري ،المرجع السابق ،ص٣١ .

(٥) أحمد محمد حسنين ،في صحراء ليبيا ،(القاهرة، ١٩٢٣)، ص٤٨-٤٩ .

(٦) أنظر فرانشيسكو روفيري ، عرض للوقائع التاريخية البرقاوية التاريخ الكرونولوجي لبرقة ١٥٥١-١٩١١، ترجمة وتقديم: إبراهيم أحمد المهدوي ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية(طرابلس)، ص٦٦، ١١١، ١٢٤؛محمد الطيب الأشهب ، برقة العربية بين الأمس واليوم ،(القاهرة، د.ت.)، ص١٦٢-١٦٣ .

7) (Quoted in E. E. Evans -Pritchard ,Sanusi of Cyrenaica , (Oxford ,1949),p.95.

(٨) محمد الطيب الأشهب ، السنوسي الكبير، (القاهرة ، د. ت.)، ص١١٦؛ Ibid., p.١١٠ ١١٠-١١٣.

(٩) وفي ذلك أنشد الشاعر أبو سيف مقرب البرعصي

وكم من حريم قد أباحوا وأجحفوا بمال غني لا يخافون عاديـــا
وكم جهول أسود اللون خلقــه كساه لبوس العلم أبيض صافيا
وكم بدوي في الفلا خلف نوقه يبول على الأعقاب اشعث حافيا
تلافاه في مهوى الضلالة هاوياً فأصبح نجمــاً بالهداية عاليــا

فتاهوا به فخراً على كل حاضر ومن جاور الأعلى يحوز المعاليا

أنظر محمد الطيب الأشهب ، السنوسي الكبير ،ص١١٦.

10) (E. E. Evans Pritchard , op.cit.,p.88

(١١) نقلاً عن ايريك آرمار فولي دي كاندول ، الملك ادريس عاهل ليبيا ، حياته وعصره ، ترجمة محمد القزيري (د.م،١٩٨٩)، ص٢ .

12) (E. E. Evans Pritchard , op.cit.,p.14 .

(١٣) لم يقطع هاملتون دوفرييه الرحالة الفرنسي بصحة نسبه بقوله، " وإذا لم يكن شريفاً ، وهو أمر لم يتم التأكد منه ، فإنه جعل نفسه كذلك بأن أطلق على نفسه لقب مولاي أو سيدي" .نقلاً عن غيرهارد رولفس ، رحلة إلى الكفرة ، ترجمة عماد الدين غانم ،الطبعة الأولى ، (طرابلس، ٢٠٠٠)،ص ٤٦١.

(١٤) يبدو أن هذا التاريخ أعد بعناية ، ان سمه محمد واسم أبيه علي وتاريخ مولده يتوافق تماماً مع مولد الرسل الأعظم (ص).

(١٥) المرجع نفسه ،ص١؛ أنظر ، محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ،ص١١ ؛ أحمد صدقي الدجاني ، الحركة السنوسية، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر ، (بيروت ، دار لبنان ،١٩٦٧) ص٣٩ .

(١٦) أحمد الشريف السنوسي ، الأنوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية ،(اسطنبول، ١٣٣٩هجري) ،ص٣-٤؛ زيادة ، محاضرات في تاريخ ليبيا، ص٦٢؛ محمد عزة دروزة ، نشأت الحركة العربية الحديثة ، (بيروت، د. ت.)،ص٧٥ -٧٦ .

(١٧) دريد عبد القادر نوري ، محمد بن علي السنوسي ١٧٨٧-١٨٥٩، جامعة الدول العربية ، منظمة التربية والثقافة والعلوم ، (تونس٢٠٠٢)، ص١ ؛ رفعت الجوهري ، شاطئ الاحلام ، اسرار من الصحراء الغربية ، (دون مكان أو زمان النشر) ، ص ١٥٤؛ محمد عمارة ، العرب

والتحدي ،(الكويت ، دار الطليعة ١٩٨٠م)، ص ١٦١ - ١٦٢ ؛ كنود هولمبو ، صراع الصحراء ، رحلة عبر ليبيا ايام نضالها ، ترجمة : عمر حبيل الحاج ، (ليبيا ، ١٩٦٩م) ، ص١٨١ .

(١٨) نقلاً عن علي عبد اللطيف حميدة ، المرجع السابق ، ص١٢٣-١٢٤.

(١٩) محمدعلي محمد عفين ، الحركة السنوسية وعلاقاتها الدولية ، رسالة ماجستير مقدمة إل جامعة الموصل في عام ٢٠٠٦؛ محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة ، ص ١٢ ؛ فلاديمير لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديثة ، (بيروت : ١٩٨٠م) ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٢٠)محمد فؤاد شكري ، المرجع نفسه ، ص١٤ ؛ محمد عمارة ، المرجع السابق ، ص١٦٢ . ذكرت المصادر أسباباً متعددة لخروجه من فاس منها ، دخوله في خصومة مع الحكومة المغربية ، أو أتهم أنه مثير للمتاعب أو غير ذلك ، أنظر محمد فؤاد شكري ، ص١٤.

(٢١) أحمد النائب الأنصاري ، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ،(طرابلس ، ١٩٦٣) ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ؛ أنور الجندي ، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا ،(القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥) ، ص ٢٠ - ٢١ ؛ أحمد صدقي الدجاني ، المرجع السابق ،٧١ .

(٢٢) ليس دقيقاً ما ذكره على الصلابي ، المتبحر بتاريخ الدعوة السنوسية ، أن دخول السيد السنوسي كان عام ١٨٢٤. أنظر الصلابي ، المرجع السابق ،ص٣٠- ٣١ .

(٢٣) عبد القادر بن عبد الملك بن علي ، الفوائد الجلية في تاريخ الحركة السنوسية ،الجزء الأول ،(دمشق ،١٩٦٦)،ص١٥-٢١ .

(٢٤) علي أن لا أقلل من جهود هذ الداعية الغيور والعالم الفذ وحماسه الكبير ، ولكن يذكر أن من اسباب عدم رغبته في العودة إلى بلدته في مستغانم هو خلافه الكبير مع أولاد عمومته بشأن ممتلكاته التي نزوا عليها دون وجه حق مما اضطره اللجوء إلى المحكمة ،الي حكمت له بهذه الممتلكات ، وبذلك قطع سبيل عودته إلى مستغانم ،فاضطر إلى تطليق زوجته وهي من بنات عمومته ويبدو أنها ظاهرت أهلها ضده ، والهجرة بشكل نهائي من الجزائر . ينظر المرجع نفسه ، ص١٣ ؛ أحمد صدقي الدجاني ، المرجع السابق ، ٥٨-٥٩ .

(٢٥) محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص١٦ ؛ أحمد صدقي الدجاني ، المرجع نفسه ، ص٦٠-٦٢ .

(٢٦) أحمد صدقي الدجاني ، المرجع نفسه ، ص٦٦ .

27) (E. E. Evans – Pritchard ,op. cit., p. 26

(٢٨) عن حياة ابن ادريس الفاسي أنظر محمد بن علي السنوسي ، "إيقاظ الوسنان " ،ص١٠ و" المسائل العشر " ، ص١١-١٣، في المجموعة المختارة ،(بيروت، ١٩٦٨) .

(٢٩) يحيى محمد ابراهيم ، مدرسة احمد بن ادريس واثرها في السودان ، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى جامعة الخرطوم ، (الخرطوم ، ١٩٩٠م) ،ص ٣٤.

(٣٠) نقلاً عن محمد علي محمد عفين ، المرجع السابق ، ص٥٨ ؛ أنظر علي محمد الصلابي ، المرجع السابق ، ص٣٧ .

(٣١) الصلابي ، المرجع نفسه ،ص ٣ .

32) (E. E. Evans – Pritchard ,op. cit., p. 26

(٣٣) لا يثبت امام النقد، القول بأن السيد السنوسي خرج من مكة بسبب مضايقة الأشراف له ، أو خشية الأتراك من نشاطه (لارتباطه بالحركة الوهابية) ذلك أن الوهابية في هذا الوقت أثر بعد عين ،بعد أن تلقت ضربات ماحقة من الجيش المصري ، وهي في كل الأوقات هي حركة تكفيرية متطرفة مقيتة ، ولا يمكن لهذا الداعية الإسلامي المصلح الارتباط بها .

(٣٤)محمد بن عثمان الحشائشي التونسي ،جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ، تحقيق علي مصطفى المصراتي ،الطبعة الأولى، (بيروت، دار لبنان ، ١٩٦٥)،ص١٥٠٩ ؛ E. E. Evans –Pritchard , op. cit., p. 14—15 .

(٣٥) عبد القادر بن عبد الملك بن علي ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص٥٠ ؛ أحمد صدقي الدجاني ، المرجع السابق ،ص٧٨ .

36) (E. E. Evans – Pritchard ,op. cit., p. 26.

(٣٧)أنظر محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص٢٢.

(٣٨) نقلاً عن عبد القادر بن عبد الملك بن علي ، المرجع السابق ، الجزء الأول ،ص٢٤ .

(٣٩) عبد الجليل الطاهر ، المجتمع الليبي ، ص ٢٤٤، ٢٥٣ ؛ محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص٢٧.

40) (N. A. Ziadeh, Sanusiyah ,a Study of Revivalist Movement in Islam,(Leiden,1953),p.104.

(٤١) Ibid. p. 94

(٤٢) المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص٥٣ .

(٤٣) محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص٣٠ ؛ أحمد صدقي الدجاني ، المرجع السابق ، ص٨٠ .

(٤٤)عبد القادر بن عبد الملك بن علي ، المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص٥١؛ أنظر كذلك عبد الجليل الطاهر ، المجتمع الليبي ،ص٢٣٥ .

(٤٥) عبد القادر بن عبد الملك بن علي ، المرجع نفسه ، الجزء الأول ،ص٧٣ ، أحمد صدقي الدجاني ، المرجع نفسه ، ص٩٦ـ٩٩.

(٤٦) محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص٣٦.

47) (E. E. Evans Pritchard ,op. cit. ,p. 103

(٤٨) محمد فؤاد شكري ،المرجع السابق ، ٣٧ .

(٤٩) فضلاً عن ذلك ،فقد لمح الرحالة الفرنسي هاملتون دفيريه إلى وجود مراكز ذات طابع ديني تعود إلى حقب سابقة لدخول أفريقيا في الدين الإسلامي ،" وربما اهتدى إلى ذلك بفعل مؤشرات تاريخية لأن واحة جوبيتر آمون كانت منذ آلاف السنين مركزاً دينياً ، ويقال أن هرقل حج إليها ، وأتى الإسكندر الكبير إليها من الإسكندرية ، ووجه كاتو أسئلته إلى الإله في الصحراء الليبية في وقت كان فيه قسم كبير من ذلك العالم يؤمنون بأقوال كهنة آمون مثلما يطيعون المراسم الفاتيكانية. وعندما أصبحت الواحة مسيحية مع القضاء على الآلهة المصرية تكرر وجود مقدسات مسيحية شهيرة في الواحة ، إذ أن قراءة سانت ماريا تبدو لي مبررة أكثر لأنه يبدو أن معبداً قد خصص هنا على الأغلب لمريم ، وفي بداية إزاحة المسيحية من جانب الإسلام لا يمكن إثبات نشأة موضع إسلامي مقدس "نقلاً عن غيرهارد رولفس، المصدر السابق ، ص٤٦٢ .

(٥٠) تقرير قائمقام جالو- أوجلة إلى متصرف بنغازي على كمالي ، حول نشاط السنوسيين وتعليق المتصرف عليها ، في عام ١٨٧٤ ، دار الكتب والمحفوظات التاريخية طرابلس(د. م. ت. ط.) ، ملف محمد بن علي السنوسي، ترجمة عبد السلام أدهم (غير منشور) ؛ محمد فؤاد شكري، المرجع السابق ، ص٣٧ ؛ أنظر كذلك ايريك آرمار فولي دي كاندول ،المصدر السابق ،ص٤. E. E. Pritchard, op. cit., p.32;

51) (Ibid., p.33,112 .

(٥٢) محمد عبد الهادي شعيرة ، سيرة السنوسي الكبير ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة الليبية ، المجلد الأول ١٩٥٨ ، ص٢٠٢ ؛ أنظر كذلك محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص٤١ .

(٥٣) أحمد النائب الأنصاري ، المصدر السابق ، ص ٣٩١،

(٥٤) عبد القادر بن عبد الملك بن علي ، المرجع السابق ، ج١ ، ص١٣، ٥٨؛ أحمد صدقي الدجاني ، المرجع السابق ، ص٥٨، ٧٢ ،٩٣ .

(٥٥) محمد بن على السنوسي ، إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن ، (لندن ، مطبعة جامعة مانشستر، ١٩٩٠)،١٥-١٩.

(٥٦) عبد الجليل الطاهر ، المرجع السابق ،٢٤٠ .

57) (El – Horeir , "Social and Economic Transformations in the Libyan hinterland During the Second Half of the Nineteenth Century :The Role of Sayyid Ahmad Al Sharif", p.108-109 ;
نقولازيادة،السنوسية ،ص١٠٠ .

(٥٨) E. E. Pritchard, op. cit., p. 13

(٥٩) ناجية رزق محمود، العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين طرابلس وكانم وبرنو في القرنين الثامن عش والتاسع عشر، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عمر المختار، كلية الآداب، قسم التاريخ، ٢٠٠٥، ص ١١٩، ١٢٠.

(٦٠) محمد بن علي السنوسي ، المصدر السابق ، ص٢٩-٣٧ .

(٦١) ايريك آرمار فولي دي كاندول ، المصدر السابق ،ص٢ .

(٦٢) أحمد زيني دحلان ، المرجع السابق ،ص٨٥ ،١٠٢

63) (E. E. Evans Pritchard ,op. cit., p. 15

(٦٤) Ibid., p. 20

(٦٥) Ibid., p.83

(٦٦) محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص٣٨ . ومما يؤسف له أن الجامع وجامعة الجغبوب والقبة والضريح البارع الصنع المقام على رمس السيد السنوسي ، هدم من قبل اللجان الثورية ، بأمر العقيد معمر القذافي في عام ١٩٨٤ ونبشت قبور السادة السنوسيين ، فوجدوا رفاة السيد محمد بن على السنوسي ورفاة ولده محمد المهدي ، ورفاة السيد عمران بن بركة ، لازالت كما دفنت ولم يلحق بها البلى ، فطرحت في العراء اياماً ، فأعطوا بعملهم هذا إلى مريديهم جرعة إيمانية دون أن يدروا، فاثبتوا بالدليل القاطع بأن أجساد أهل البيت وأبنائهم لا يلحق بها البلى ، في حين وجدوا رفاة الاخرين رميم عظام . وظل أهل برقة يتناقلون هذا الخبر عقوداً طويلة . وعلى اية حال نقلت والأجساد والعظام ودفنت في مكان مجهول . أنظرايريك آرمار فولي دي كاندول ، المصدر السابق ، ص٤.

(٦٧) يبدو أن أول من ادعى ذلك كان أحمد صدقي الدجاني، لأسباب كثيرة منها أنه ربما بانتظار نوال الوهابيين، ولو أنه كتب كتابه عندما كان الوهابيون يقتاتون على العظايا لما

قرن هذه الدعوة الوهاجة بتلك الحركة الظلامية ، لكن مما يؤسف له أن السنوسيين (الليبيين) أخذو هذا التخريج على أنه من المسلمات ، ونسوا أنهم أحفاد الفاطميين والسنوسيين، وعليهم الدفاع عن ذكرى هذا الرجل ومنطلقاته الفكرية. أنظر أحمد صدقي الدجاني، المرجع السابق ، ص ١٠١ومابعدها.

(٦٨) أحمد فؤاد شكري ، المرجع السابق، ص ٤٢- ٤٣ ؛ أحمد صدقي الدجاني ، المرجع السابق ، ص٧٥ .

(٦٩) محمد بن علي السنوسي ، المسائل العشر ، ضمن المجموعة المختارة ،(منشستر،١٩٩٩)

(٧٠) نقلاً عن غيرهارد رولفس ، المصدر السابق ، ص٤٦٣ .

(٧١) هناك من يفترض أنه من نسل الإمام الحسن ومن يقول أنه من نسل الإمام الحسين عليهما السلام ، أن هذا لا يعنينا أكان من ذرية الحسن أو من ذرية الحسين ، والمهم أن الجميع متفقون على وجود هذه الشخصية .

(٧٢) أحمد صدقي الدجاني ، المرجع السابق ،،ص١٧١ . ويعتقد البعض أنه قال مثل ذلك القول لتشجيع ابنه اليافع ، ولكني أعتقد أنه كان يعي ويعني ما قال تماماً ؛ أنظر بهذا الشأن تقرير قائمقام جالو ـ اوجلة ، (د. م. ت. ط،.) ، المصدر السابق .

(٧٣)جيمس ريتشاردسون ، ترحال في الصحراء ، ترجمة الهادي أبو لقمة ، (منشورات جامعة قاريونس بغازي ، ١٩٩٣) ، ص١٨٩ .

(٧٤)نقلاً عن أحمد زيني دحلان ، الدرر البهية في الرد على الوهابية ،(دمشق ، ٢٠٠٢)، ص١٠٨ ــ١٠٩.

(٧٥) المصدر نفسه ،ص١٠٩ .

(٧٦) النصب كلمة معناها إظهار العداوة للنبي وآل بيته .

(٧٧) وفي ذلك يصف الرحالة الفرنسي المعادي جداً للسنوسية "يقسم الجميع بسيدي السنوسي ، بحيث أصبح تبجيل هذا الولي تبجيل النبي نفسه، وعندما يقسم التبو في الكفرة أو في التبستي مثلاً يستخدمون أشد تأكيد له بقولهم بحق سيدي السنوسي . واثناء وجودنا في الكفرة وصل حجاج من مستعمرة السنغال الفرنسية ، ولم هدفهم مكة على ماجرت عليه الحال بل الجغبوب، التي اعتبروها أكثر أجراً من مكة ورفعت مكانتهم في أعين البلدان التي عبروها وجعلت منهم رجالاً صالحين ومباركين . نقلاً عن غيرهارد رولفس ،المصدر السابق،ص٤٦٢ .

(٧٨) عبد الجليل الطاهر ،المجتمع الليبي ، ص٢٤٣.

79) (E. E. Evans – Pritchard op. cit., p.14, 16

(٨٠) محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص٩ .

(٨١) لمزيد من الاطلاع ينظر، مذكرات الجاسوس البريطاني همفرز ، ترجمة خ. ج.،(قم ، ٢٠٠٠) ، ص ٣٠ وما بعدها ؛ للمزيد أنظر صائب عبد الحميد ، الوهابية في صورتها الحقيقية ،(بيروت، ١٩٩٠) ، ص ٢٠ ؛ حسين أبو علي ، الوهابية وجذورها التاريخية، (قم ،٢٠٠٦)، ص٥٠ ـ٥٣ .

(٨٢) Edmond Burke ,"Understanding Arab Protest Movements" ,Arab Studies Quarterly, Vol. VIII,No.4 , 1988, p.336-338 .

(٨٣)كارلو قوتييو رشيناري، العلاقات العربية الايطالية من ١٩٠٢ إلى ١٩٣٠ ،من مذكرات أنريكو أساباتو ،ترجمة عمر الباروني، (طرابلس،مركزجهاداللييين،١٩٨٠) ،ص١٣٧ ؛أنظر محمد عبد الفتاح عبد المجيد أبو الاسعاد، مصر و المسألة الليبية ١٩١١ـ١٩٣١ ،أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآدابـ جامعة عين شمس، ١٩٩٠،ص٦٣ ،٦٧

(٨٤) أحمد محمد حسنين ، المصدر السابق ،ص١٨٨ .

85)(E. E. Evans –Pritchard, op. cit., p. 83 .

(٨٦) جلال علي عامر ، الحركة السنوسية ، مؤسسها ، فكرها ، تنظيمها، بحث منشور على الشبكة العنكبوتية(الانترنيت) ; Ibid., p. 13 موقع المختار، ١٨كانون الثاني(يناير) ، ٢٠٠٢م ،ص٧.

(٨٧) تبدو المبالغة واضحة في الإنفاق ، وهو يتعارض تماماً مع الطابع التقشفي للدعوة السنوسية كما يتناقض مع النصوص الأخرى التي تدل دلالة واضحة على طابع التقشف.

(٨٨) محمد الطيب الأشهب ، السنوسي الكبير ، ص ٣٣ ـ٣٥ . ؛ Ibid., p.32

(٨٩) ايريك آرمار فولي دي كاندول ،المصدر السابق ، ص٥ـ٦؛ Ibid., p.32.

(٩٠)المصدر نفسه ، ص٦ .

(٩١) محمد الطيب الأشهب ، السنوسي الكبير ، ص٣١ .

(٩٢) تقرير قائمقام جالوـ أوجلة ، (د. م. ت. ط.) المصدر السابق ؛– E. E. Evans Pritchard , op. cit., p.76.

(٩٣) شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي ، ص ١٥٤ . Quoted in Ibid., p. 76 ;

(٩٤) أحمد صدقي الدجاني ، المرجع السابق ، ص٢٣٨ -٢٣٩؛ لوثروب ستودارد ، حاضر العالم الاسلامي ، ج١، مطبعة دار الفكر ، (بيروت ، ١٩٧١م) ، ص٢٩٧.

(٩٥) أحمد حسنين ،المصدر السابق ،ص٤٦ ؛ أحمد صدقي الدجاني ، الحركة السنوسية ،ص ٢٣٩؛ حمدون ، المرجع السابق ،ص ١٢١ ؛ الجندي ، الفكر والثقافة ، ص ٢٥ .

(٩٦) تقرير قائمقام جالو ــ أوجلة (د. م. ت. ط.) المصدر السابق ؛ أحمد صدقيالدجاني ،المرجع السابق ، ص ٢٣٩ ؛ أنظر لوثروب ستودارد ، المرجع السابق ،ص٢٩٧ .

(٩٧) نقلاً عن ن. إ. بروشين، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٦٩، ترجمة عماد حاتم ، طرابلس ، ١٩٨٨ ، ص٦٩ .

(٩٨) عجيل النشمي ، السنوسية تعد للعمل الجهادي لمساندة دولة الخلافة ، بحث منشور على شبكة العنكبوتية(الانترنيت)، موقع الفسطاط ، ٤ شباط ٢٠٠٤، ص٢ .

99) (E. E. Evans- Pritchard, op. cit., p. 82-84 .

(١٠٠)محمود شلبي ، عمر المختار المثل الخالد للنضال العربي ،(طرابلس ،١٩٧٥)، ص١٥ .

(١٠١)علي محمد الصلابي ، المرجع السابق ، ص٤٧.

102) (E. E. Evans- Pritchard, op. cit., p. 54 -55

.

(١٠٣) محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص٥٠ .

(١٠٤)محمد الطيب الأشهب ،السنوسي الكبير ، ص٢٤ .

(١٠٥) نقلاً عن نيكولاي. أ. بروشين ، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر ،ص٧٠ .

(١٠٦)ايريك آرمار فولي دي كاندول ، المصدر السابق ،ص٧؛ E. E. Evans –Pritchard op. cit., p. 77.

(١٠٧) محمد الطيب الأشهب ، السنوسي الكبير ، ص٣٣-٣٤ Ibid., p. 97

(١٠٨) جلال علي عامر ، المرجع السابق ، ص٨-٩ .

(١٠٩)لوثروب ستودارد ، المرجع السابق ،ص٢٩٧ . Ibid., p. 76

(١١٠) Ibid., p.83- 85.

(١١١) ن. أ. بروشين تاريخ ليبيا الحديث ، ص٣٢٨.

(١١٢) الليرهو وحدة النقد الايطالي .

113) (E. E. Evans- Pritchard , op. cit., p. 89 .

114)(Great Britain ,Parliamentary Papers , consul Fontana ,Report on trade of Benghazi District for Year 1906- 1908 ,No .4214 ,session 1909 ,Vol .98 ,5;No.2153,session1898,Vol.99,8.

ففي عام ١٨٩٦-١٨٩٧ على سبيل المثال خرجت من بنغازي على طريق الجغبوب ـ جالو ـ الكفرة ـ تبستي ـ واداي سبع عشرة قافلة ، كانت خمس عشرة منها تضم ٥٨٢ جملاً مملوكة لتجار بنغازي ، والاثنتان الباقيتان مملوكتان للقبيلتين المذكورتين ،كل منهما لقبيلة وكانت قافلة المجابرة تضم ٥٥٠ جملاً ، فيما تضم الأخرى التي تعود إلى قبيلة الزوية ١٠٠جمل.

(١١٥) نقلاً عن علي عبد اللطيف حميدة ، المرجع السابق ، ص١٣٠ .

116) (Dennis D. Cordell, Dar Al-Kuti ,A History of Slave Trade and State Formation on the Islamic Early Twentieth Centuries ,PHD Theses, (Wisconsin,1977),p. 115.

117) (Great Britain ,Parliamentary Papers , consul Fontana ,Report on trade of Benghazi District for Years 1906-1908 ,No.4214,session 1909,Vol.98,5; No.2153,session1898, Vol. 99,8.

(١١٨) ايريك آرمار فولي دي كاندول ، المصدر السابق ، ص٨ .

(١١٩) نقلاً عن علي عبد اللطيف حميدة ، المرجع السابق ،ص١٢٠ .

(١٢٠) N. A. Ziadeh, op. cit., p. 104

(١٢١) علي عبد اللطيف حميدة ، المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(١٢٢) محمد بن عثمان الحشائشي ، المصدر السابق ، ص١٨٥ .

123) (Sudan Intelligence Report(Cairint) 2\15\125, Cairo, Senussism History ,p.5 ; Cairint2/15/128, January14 1906

(١٢٤) مذكرات أنور باشا في طرابلس الغرب ، ترجمة عبد المولى صالح الحرير (طرابلسن١٩٧٩)ص٩٩.

(١٢٥) (د. م. ت. ط .) " الخارج من التجار من محروسة مرزق إلى بنغازي " في ١٢٦٥هجري (اكتوبر،١٨٤٩ميلادي)، نقلها إلى العربية محمد الأسطى .

(١٢٦) E. E. Evans –Pritchard, op. cit., p.77-79,82,97

(١٢٧) أنظر محمد على الصلابي المرجع السابق ، ص ٦١ ــ٦٩ .

(١٢٨) E. E. Evans- Pritchard, op. cit., p. 85-88

(١٢٩) Ibid., p. 98-90

(١٣٠) Ibid., p. 85

(١٣١) تقرير قائمقام جالو- أوجلة ، (د. م. ت. ط.) المصدر السابق .

(١٣٢) ن. أ. بروشين ، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر ، ٧٤ .

(١٣٣) محمد الطيب الأشهب ، السنوسي الكبير ، ص٥٠ .

(١٣٤) المرجع نفسه ، ٦٢.

(١٣٥) عبد القادر بن عبد الملك بن علي ، المرجع السابق ، الجزء الأول ،ص ١٣ .

(١٣٦) محمد الطيب الأشهب ،السنوسي الكبير ، ص ٦٩-٧٢ .

(١٣٧) ايريك آرمار فولي دي كاندول ، المصدر السابق ، ص٦، ٨ .

138) (E. E. Evans- Pritchard, op. cit., p. 21 .

قائمة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الوثائقية

١ـ تقرير قائمقام جالو ـ أوجلة ، إلى متصرف بنغازي علي كمالي في عام ١٨٧٤ ، حول نشاط الدعوة السنوسية، دار المحفوظات التاريخية، طرابلس ، ترجمة عبد السلام أدهم .

٢ـ(د. م. ت. ط .) " الخارج من التجار من محروسة مرزق إلى بنغازي " في ١٢٦٥هجري (اكتوبر، ١٨٤٩ ميلادي)، نقلها إلى العربية محمد الأسطى.

٣ـ Great Britain ,Parliamentary Papers , consul Fontana ,Report on trade of Benghazi District for Years 1906-1908 ,No.4214,session 1909,Vol.98,5; No.2153,session1898, Vol. 99,8.

٤ـSudan Intelligence Report(Cairint) 2\15\125, Cairo, Senussism History ,p.5.

Sudan Intelligence Report(Cairint) 2\15\128, Cairo, Senussism History , January14 1906.

٥ـ الكتب والمجلات

١ـ الأشهب ، محمد الطيب ،برقة العربية بين الأمس واليوم(القاهرة ، د.ت.) .

٢ـ ===== السنوسي الكبير ، (القاهرة ، د. ت.) .

٣ـ الأنصاري ، أحمد النائب ، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، (طرابلس ، ١٩٦٣) .

٤ـ ابراهيم ، يحيى محمد ، مدرسة احمد بن ادريس واثرها في السودان ، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى جامعة الخرطوم ، (الخرطوم ، ١٩٩٠م).
أبو علي ،حسين الوهابية وجذورها التاريخية، (قم ،٢٠٠٦).
٥ـ أنور باشا، مذكرات، في طرابلس الغرب ، ترجمة عبد المولى صالح الحرير (طرابلسن١٩٧٩)ص٩٩.
٦ـ بروشين ، نيكولاي ايلتش، تاريخ ليبيا الحديث من مطلع القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر ، ترجمة عماد حاتم ،(طرابلس ، ١٩٩١) .
٧ـ ===== تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٦٩ ، ترجمة عماد حاتم ، (طرابلس ، ١٩٨٨) .
٨ـ الجمل ، شوقي عطا الله ، المغرب العربي ،
٩ـ الجندي ، أنور، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا ،(القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥).
١٠ـالجوهري ،رفعت، شاطئ الاحلام ، اسرار من الصحراء الغربية ، (دون مكان أو زمان النشر).
١١ـ حسنين ،أحمد محمد ،في صحراء ليبيا ،(القاهرة، ١٩٢٣) .
١٢ـ الحشائشي ، محمد بن عثمان ،جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ، تحقيق علي مصطفى (المصراتي ،الطبعة الأولى، (بيروت، دار لبنان ، ١٩٦٥).
١٣ـ حميدة ، علي عبد اللطيف ، المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا ، (بيروت، ١٩٩٥) .
١٤ـ الدجاني، أحمد صدقي ، الحركة السنوسية، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر،(بيروت، دار لبنان،١٩٦٧).
١٥ـ دحلان، أحمد زيني ، الدرر البهية في الرد على الوهابية ،(دمشق ، ٢٠٠٢) .
١٦ـ دروزة ،محمد عزة، نشأت الحركة العربية الحديثة ، (بيروت، د. ت).
١٧ـ روفيري ، فرانشيسكو ، عرض للوقائع التاريخية البرقاوية التاريخ الكرونولوجي لبرقة ١٥٥١-١٩١١، ترجمة وتقديم: إبراهيم أحمد المهدوي ، (طرابلس، مركز جهاد الليبيين، ٢٠٠٣) .
١٨ـ رولفس، غيرهارد ، رحلة إلى الكفرة ، ترجمة وتقديم عماد غانم ، الطبعة الأولى (طرابلس، ٢٠٠٠).

١٩ـ ريتشاردسون، جيمس، ترحال في الصحراء ، ترجمة الهادي أبو لقمة،(بنغازي، جامعة قاريونس، ١٩٩٣).
٢٠ـ زيادة ، نيقولا ، محاضرات في تاريخ ليبيا ، من الاستعمار الايطالي حتى الاستقلال ،(القاهرة ، ١٩٥٧).
٢١ـ ستودارد ،لوثروب ، حاضر العالم الاسلامي ، ج١، مطبعة دار الفكر ، (بيروت ، ١٩٧١م) .
٢٢ـ السنوسي، أحمد الشريف ، الأنوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية ،(اسطنبول، ١٣٣٩هجري).
٢٣ـ السنوسي ،محمد بن علي، إيقاظ الوسنان في العمل بالقرآن (مانشستر ، ١٩٩٠) .
٢٤ـ بن علي، عبد القادر بن عبد الملك ، الفوائد الجلية في تاريخ الحركة السنوسية ،الجزء الأول ،(دمشق ،١٩٦٦).
٢٥ـ ===== ، المسائل العشر ، ضمن المجموعة المختارة ،(منشستر،١٩٩٠) .
٢٦ـ شعيرة ،محمد عبد الهادي ، سيرة السنوسي الكبير ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة الليبية ، المجلد الأول ١٩٥٨.
٢٧ـ شكري ،محمد فؤاد السنوسية دين ودولة ،(القاهرة ، ١٩٤٧).
٢٨ـ الصلابي ،علي محمد ، الحركة السنوسية في أفريقيا ، (بيروت ، ٢٠٠٦) .
٢٩ـ الطاهر ، عبد الجليل ، المجتمع الليبي ،دراسات اجتماعية انثربولوجية ، (بيروت ،١٩٦٩) .
٣٠ـ عامر ،جلال علي ، الحركة السنوسية ، مؤسسها ، فكرها، تنظيمها، بحث منشور على الشبكة العنكبوتية (الأنترنت) ١٨كانون الثاني(يناير) ، ٢٠٠٢ .
٣١ـ عبد الحميد ،صائب، الوهابية في صورتها الحقيقية ،(بيروت، ١٩٩٠) .
٣٢ـ عفين ، محمد علي محمد ، الحركة السنوسية وعلاقاتها الدولية ، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل في عام ٢٠٠٦ .
٣٣ـ عمارة ، محمد، العربوالتحدي ،(الكويت ، دار الطليعة ،١٩٨٠).
٣٤ـ كاندول ،ايريك آرمار فولي ، الملك ادريس عاهل ليبيا ، حياته وعصره ، ترجمة محمد القزيري (د.م،١٩٨٩).
٣٥ـ لوتسكي ،فلاديمير، تاريخ الاقطار العربية الحديثة ، (بيروت : ١٩٨٠م) .

٣٦ـ محمود،ناجية رزق، العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين طرابلس وكانم وبرنو في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، رسالة ماجستير غير منشورة،(جامعة عمر المختار، كلية الآداب، قسم التاريخ،٢٠٠٥).

٣٧ـ النشمي ،عجيل ، السنوسية تعد للعمل الجهادي لمساندة دولة الخلافة ، بحث منشور على شبكة العنكبوتية (الانترنيت)، موقع الفسطاط ، ٤ شباط(فبراير) ٢٠٠٤.

٣٨ـ نوري ، دريد عبد القادر ، محمد بن علي السنوسي ١٧٨٧-١٨٥٩، جامعة الدول العربية ، منظمة التربية والثقافة والعلوم ، (تونس٢٠٠٢).

٣٩ـ همفرز ، ترجمة خ. ج.،(قم ، ٢٠٠٠).

٤٠ـ هولمبو ،كنود ، صراع الصحراء ، رحلة عبر ليبيا ايام نضالها ، ترجمة : عمر حبيل الحاج ، (ليبيا ، ١٩٦٩م).

41-Burke ,Edmond ,"Understanding Arab Protest Movements",Arab Studies Quarterly, Vol. VIII,No.4,1988.

Cordell,Dennis D. ,Dar Al-Kuti ,A History of Slave Trade and State Formation

42- on the Islamic Early Twentieth Centuries ,PHD Theses, (Wisconsin,1977).

43- El – Horeir , "Social and Economic Transformations in the Libyan hinterland During the Second Half of the Nineteenth Century :The Role of Sayyid Ahmad Al Sharif",Evans –Pritchard,E. E.,Sanusi of Cyrenaica , (Oxford ,١٩٤٩) .

45- ١٩٥٣). Ziadeh,N.A., Sanusiyah ,a Study of Revivalist Movement in Islam,(Leiden,